البحث رقم
10

جهود الباحثين المُحدّثين
في دراسة الحديث النبوي الشريف
الدراسات ذوات المنحى الدلالي أنموذجاً

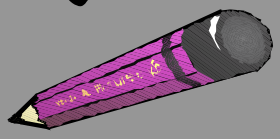

الأستاذ المساعد الدكتور
رميض مطر حمد
الدليمي
كلية الآداب
جامعة الأنبار

المدرس
عبد الكريم محمد
خلف الجنابي
المكتبة المركزية
جامعة الأنبار
طالب دراسات عليا

ملخص البحث:

تناول الباحثون المحدثون الحديث النبوي الشريف بالدراسة من أكثر من جانب، ومنها الجانب الدلالي بمفهومه العام، وهو ما سنتوقف عنده في هذا البحث، فقد كانت لهم جهود متميزة في هذا الموضوع، إذ توقفوا عنده بمناهج متنوعة لاكتشاف أسرار المعنى والسبل المفضية إلى كشف دلالته في هذا النص المقدس، فلم تأت الحركات والهيئات النبوية كيفما اتفق، وإنما جاءت حاملة دلالة معينة ومفضية إلى معنى يرافق المنطوق اللفظي أو يكون عوضاً عنه حسب السياق الذي جاء فيه، فللسياق دور كبير في تحديد دلالة ذلك، وكذلك الحال مع اللون وآلية مجيئه في الحديث النبوي الشريف، فقد جاء حاملاً في طياته أبعاداً دلالية أخرى، أما الحقول الدلالية فقد ولج منها بعض الباحثين المحدثين لقراءة هذا النص المقدس، وهذه هي أبرز الجوانب التي سلطنا عليها الضوء في هذا البحث.

Abstract

The late researchers tackled the prophetic Hadith from various sides; one of these is the semantic side in general. They shared considerably in this subject. They tackled this subject in depth to reveal its sacred secrets and invaluable references. The prophetic motions didn't appear by chance, but they appeared with a specific semantic reference hand by hand with the utterances themselves. Sometimes they replace theses references in accordance with the text. The text has a vital role in deciding the final meaning of the utterances.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد سار الباحثون المحدثون مساراً منوعاً لاكتشاف الدلالة من خلال دراساتهم للتعبير النبوي(١)؛ لأن الدلالة كما حددها الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، هي (كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول)(٢).

وهي أيضاً: (ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات والرموز والكتابة والعقود في الحساب، وسواء كان ذلك بقصد ممن يجعله دلالة أو لم يكن بقصد كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حي)(٣).

ومباحث علم الدلالة انصبت على قضية المعنى، فهو (العلم الذي يدرس بطريقة منهجية مفهوم الكلمات ووسائل تحديد علاقاتها بالعالم الخارجي، ويدرس تطور الدلالة واتجاهاته، ويدرس العلاقات الدلالية بين المفردات... ويدرس الأساليب اللغوية المختلفة ومالها من دلالات... ويدرس السياق وأثره في تحديد الدلالة)(٤).

ويعرف د. أحمد مختار علم الدلالة بأنه: (الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادراً على نقل المعنى)(٥).

والمعنى العام لكلمة «دلالة» هو الإبانة أو التسديد بالأمارة، أو بأي علامة أخرى لفظية أو غير لفظية. وللوقوف على ذلك كله في جهود الباحثين المُحْدَثين كان هذا البحث الذي تضمّن المباحث الآتية:

---

(١) ينظر: علم الدلالة العربي: ٦.

(٢) التعريفات: ٢١٥.

(٣) المفردات: ٢٤٦.

(٤) رؤية جديدة في مفهوم علم الدلالة: ٢١٢.

(٥) علم الدلالة: ١٢.

المبحث الأول:

لغة الجسد

قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن هذا العنوان لا يمت بصلة إلى عنوان البحث الذي يستهدف الحديث النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام؛ لأن لغة الجسد يُتوصل إليها من خلال ما يُفهم من حركةٍ ما، فهو إذن تعبير من خلال المفهوم وليس من خلال المنطوق؛ ولذلك كان وضعه في هذا المكان من هذه الأطروحة.

فـ(للكلمة جانبان: واحد مادي وآخر معنوي، أما المادي فهو الدال وهو الصورة الصوتية، وأما المعنوي فهو المدلول وهو الصورة الذهنية التي تنقدح في النفس عند ورود الدال عليها، والحق أن الحركة الجسدية كذاك أمرها، إذ إن لها دالاً ومدلولاً. أما الدال فهو الصورة التشكيلية التي تتجلى عليها الحركة، حركة الكف أو اليد أو العين أو الحاجب أو الوقفة، وأما المدلول فهو الصورة الذهنية المعنوية التي تسترفد دلالتها من الدال الحركي، فكلتاهما –أعني الكلمة في اللغة الصائتة، والحركة في اللغة الصامتة «الجسدية»– تأتلف من دال ومدلول والملمح الفرَّاق بينهما غير متعَيَّن في المدلول، بل في ماهية الدال، إذ إنه في الصائتة صوتي ذو طبيعة رمزية، وفي الصامتة حركي ذو طبيعة رمزية أيضاً)[١].

والحديث النبوي الشريف جاء بلغة الضاد التي تحمل كلماتها هذين الجانبين «الدال والمدلول» سواء أكان التعبير لفظياً أم إشارياً، فـ(كلمة «اللغة» لا يقتصر معناها على اللغة اللفظية وحدها، بل تعد كل وسيلة غير لفظية يعبر بها الفرد عن فكرة أو انفعال معين لغة أيضاً، فصورة الملامح لغة والحركة لغة والإشارة لغة وطريقة النطق لغة، جميع هذه القرائن التي يمكن أن تعبر عن معان معينة تعد لغة، وهي تؤدي وظائف مهمة في حياة الفرد ما دامت تتميز بصفة التعبير)[٢].

وقد تناول قسم من الباحثين المُحْدَثين لغة الجسد في الحديث النبوي الشريف بالدراسة، فمنهم من أفردها بمؤلف مستقل، ومنهم من ضمَّنها كتابه الذي يتحدث عن البلاغة النبوية عامة، أو لغة الجسد خاصة.

---

(١) البيان بلا لسان: ٣١– ٣٢.

(٢) القرائن الدلالية في الحديث النبوي الشريف: ٣٩.

وقد حرص الرواة الأمناء الذين شافهوا رسول الله ﷺ على نقل الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تضمنت إشارات أو هيئات نبوية صدرت منه ﷺ نقلوها كما شاهدوها ملتفتين إلى أدق تفاصيل حركاته الشريفة وإيماءاته وشمائله وتعابير وجهه ويده وعينه وغير ذلك، مقررين دورها في الإبانة والتواصل، ذلك لأن مفهوم الحديث لم يكن مقصوراً على لفظه الشريف فقط، ومن جهة أخرى كان الرسول ﷺ يستعين بجوارحه بل كان يُحلها محل اللفظ أحياناً، فتكون دالة كما اللفظ بل أبلغ في مواضع، كما في قوله ﷺ: (إذ أتاني آتٍ فشق ما بين هذه إلى هذه)[١]، و(التقوى هاهنا)[٢].

ويرى د. مهدي أسعد عرار أن الحركة الجسدية (هي التي عينت المعنى وخصصته، ولما سار الحديث بين الناس ولما تناقله الرواة ولما انسلخ من سياقه الحي – لما كان ذلك كذلك – كان مبدأ الاعتياض مطلباً رئيساً مؤسساً لتعيين الدلالة للاحقين، فهم ليسوا شهود الحضرة تلك، لا ولا من الذين عاينوا حركته الشريفة التي جاءت لتعيين الجهة والمكان، ولذا اعتاض الراوي في روايته الحديث عن الحركة بالرواية، فقال مستدركاً مُجلياً للحركة في حديث «التقوى ههنا»، وأشار إلى صدره ثلاث مرات، وقد ظهرت رواية الحركة في الحديث الشريف بألفاظ مخصوصة أشهرها: وقال كذا، وهي رواية للفعل بالقول، ورواية للحركة بالكلمة، ولذلك كثُر قول الراوي الأمين الناقل للحركة، والمُمثِّل له بكلمات من خاص لفظه: فقال بيده، وقال برأسه، وقال بإصبعيه، وقال هكذا، ومن ألفاظها الممثلة «هكذا»، والمعلوم أن «هكذا» مقررة للهيئة مُعينة للحال)[٣].

فلولا النقل الأمين الدقيق للرواة لما استطاع اللاحق أن يفهم مراد السابق بكل أبعاده، ويبدو أن الباحث قد نظر من هذه الزاوية لهذه الحركات أو الهيئات النبوية التي رافقت نصوص الحديث النبوي الشريف، والحق أن هذه الحركات أو الهيئات لا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٣٨٨٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ١٣/١٥٩.

(٣) البيان بلا لسان: ٢٥١-٢٥٣، وينظر: بلاغة الإشارة في ضوء الأحاديث النبوية – دراسة دلالية: ٧٩.

تقف عند حدود إيصال المعنى المراد للمتلقي، بل تتعداه إلى التأثير فيه، فالمشاهِد الحاضر والمتلقي الغائب يتأثران بهذا التنوع في طرائق إيصال المعنى، فالمغزى الأول هو التأثير ليس إلا.

وقد جاءت عن النبي ﷺ إشارات وحركات جسدية عديدة تدل على معنى ما، منها ما حصل ابتداءً من النبي ﷺ، ومنها ما حصل نتيجة سلوك فعلي أو قولي صدر من أحد الناس، وبعض هذه الحركات تصاحب الخطاب اللفظي، وبعضها لا تصاحبه، بل هي بذاتها تكون كافية في التعبير عن المراد، وقد يحسن المخاطب فهمها فيكتفي بها، وقد لا يكتفي بها لسبب ما، وهي تعد لدى المخاطَب كناية عن المعنى الذي تدل عليه، هكذا يرى الباحثون يوسف عبد الله محمد الذي ذكر أمثلة على ذلك مما يلائم حال المخاطب(١)، ود. أحمد عارف حجازي(٢)، وعبد اللطيف مصطفى أحمد(٣). إذ نظروا إلى آليات صدور هذه الحركات الجسدية النبوية، ومما ينبغي التنبيه عليه هنا أنه ليست كل الإشارات النبوية تُعدُّ كنايةً عن المعنى الذي تدل عليه، فعندما نسمع قول الرسول ﷺ: (التقوى ههنا) ويشير إلى صدره الشريف، أين الكناية في ذلك؟ إنما هي زيادة إيضاح في المعنى بُغية التأثير في المتلقي، وهناك حركات أخرى تُعدُّ كنايةً كما في احمرار وجهه الشريف ﷺ، فهو كناية عن الغضب، أو غيره بحسب سياق وروده.

وينظر د. محمد رجب البيومي إلى آليات صدور هذه الحركات أو الهيئات النبوية من زاوية أخرى، فيرى أنها جاءت عفوية من النبي ﷺ، وهذه العفوية انبثقت من نفس صادقة جاءت تبلغ رسالة ربها إلى الناس كافة، فأشار إلى أن النبي ﷺ يعلم أن بعض الناس يشهدون الزور دون استحياء، فتهديه لباقته الحصيفة في العرض الرائع أن يجمع إلى النهي عن شهادة الزور عدة فظائع متفق على إنكارها؛ لتقرن بها شهادة الزور فتكون خاتمة الفظائع من المنكرات، فضلاً عن استعانته بالحركة الصادقة دون افتعال ليظهر ما يعنيه من تشديد النكير على المزورين، فيمهد أولاً

(١) ينظر: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين–دراسة بلاغية تحليلية: ٢٤٣–٢٥٢.
(٢) ينظر: دراسات لسانية في الحديث النبوي: ٩١، وما بعدها.
(٣) ينظر: مراعاة أحوال الناس في ضوء السنة النبوية: ٩٠– ٩٩.

للحديث بسؤال لافت للأذهان إذ يقول: (أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ ثَلاَثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ)[١]، ويقرأ الباحث لغة الجسد هذه فيبين قصديتها؛ لأن (اعتدال الرسول ﷺ بعد اتكائه لمما يدفع إلى اهتمام مفرط أغنت فيه الحركة عن أفصح التعبيرات، وإن تكرار النهي عن شهادة الزور لمما يجعل المزور يذوب خجلاً، وألفاظ الحديث تنهال كالقذائف على رأسه مهددة متوعدة، وإن الحديث بذلك يدل على أجمل لباقة واعية في تهيئة الأذهان واستيجاش الأحاسيس)[٢].

وإلى ذلك أشار د. محمد لطفي الصباغ الذي عدَّها من وسائل التصوير[٣]، ود. عز الدين علي السيد[٤].

فهؤلاء الباحثون يُجمعون على أن هذه الحركة الجسدية جاءت لتُشدد النكير على من يقع في شهادة الزور، إذن يمكننا القول: إن زاوية نظر هؤلاء الباحثين شرعية خالصة؛ لأنهم قرأوا هذه الحركة الجسدية التي تحمل في طياتها الانفعال الصادق على أنها دالة على التحريم المغلظ لكبيرة من الكبائر التي لا يمكن للمسلم أن يقربها.

وانطلاقاً من ذلك عدَّها الباحث محمد علي عوض من عوامل التعبير الإعلامية المساعدة على وصول الفكرة إلى المخاطب[٥].

وتكرر عند ثلة من الباحثين التركيز والوقوف عند مغزى الحركات والهيئات النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام التي يرونها تتمثل في إثارة الاهتمام -كما أشرتُ سابقاً-، فيرى الباحث عبد الفتاح أبو غدة أن النبي ﷺ كان يثير انتباه المخاطب بأخذ يده أو منكبه ليزداد اهتمامه بما يُعلمه، وليُلقي إليه سمعه وبصره

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٢٦٥٤).

(٢) البيان النبوي: ١٩٤.

(٣) ينظر: الحديث النبوي – مصطلحه – بلاغته – كتبه: ١٠٠- ١٠١، والتصوير الفني في الحديث النبوي: ٥٢٥، وما بعدها

(٤) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ٧٦- ٧٧.

(٥) ينظر: الإعلام في السنة النبوية: ١٠٩.

وقلبه؛ ليكون أوعى له وأذكر[١]، وذكر حديث ابن مسعود ﷺ، قال: (علَّمني رسول الله ﷺ وكفي بين كفيه التشهد كما يُعلمني السورة من القرآن: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله)[٢].

فهناك قصدية واضحة في هذه الحركات من لدن الرسول ﷺ، إذ عمد إليها بُغية إقرار أمرها، فضلاً عن تأكيده في نفس المتلقي، زد على ذلك إضفاء الجمالية على المعنى وترسيخه في ذهنه.

ويرى الباحث أيضاً أن النبي ﷺ كان يستعين على توضيح المعاني بالرسم على الأرض والتراب، عن جابر ﷺ قال: (كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فخط بيده في الأرض خطاً هكذا أمامه، فقال: هذه سبيل الله ﷻ، وخط خطين عن يمينه، وخطين عن شماله، وقال: هذه سبل الشيطان، ثم وضع يده في الخط الأوسط، ثم تلا هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣][٤].

وعن ابن مسعود ﷺ، قال: (خط النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، فقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه كلها أصابه الهرم)[٥].

---

(١) ينظر: الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم: ١٧٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (٦٢٦٥) .
(٣) سورة الأنعام: ١٥٣.
(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه: (١١) .
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: (٦٤١٧) .

فبين لهم ﷺ بما رسمه أمامهم على الأرض كيف يُحال بين الإنسان وآماله الواسعة بالأجل المباغت، أو العلل والأمراض المقعدة، أو الهرم المفني، وحضهم على قصر الأمل والاستعداد لبغتة الأجل، وكانت وسيلة الإيضاح في ذلك الأرض والتراب، فلقد سبق رسول الله ﷺ جميع المدارس التربوية الحديثة في الدعوة إلى الاستعانة بالوسائل التعليمية المعينة على الفهم، فهو يرسم على الأرض بما يشبه الرسم على السبورة أو عرض وسيلة تعليمية يقرب من خلالها المعاني المجردة إلى معاني محسوسة يفهمها الجميع، وبهذا فسّر بعض الباحثين هذا الرسم النبوي على الأرض، ومنهم الباحث عبد الفتاح أبو غدة(١)، ود. محمود السيد حسن(٢)، والباحث مصطفى عبد اللطيف أحمد(٣)، ود. السيد عبد السميع حسونة في بحثه الذي فسّر فيه مجموعة من الإشارات النبوية(٤).

إذ ذكروا أن هذه الإشارات والرسوم النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام جاءت موضحة للمعنى المقصود إيصاله إلى المتلقي، ومعلوم لدينا أن إشراك أكثر من حاسة في استقبال التوجيه يكون أكثر تأثيراً من التركيز في حاسة واحدة، فالتوجيه اللفظي دون إشارةٍ ما يستهدف حاسة السمع فقط، أما إذا أضيف إلى التوجيه اللفظي مخاطبة حاسة البصر أيضاً بما تراه من رسوم وإشارات عندئذٍ يكون التأثير مضاعفاً، وهو المقصود من التوجيهات النبوية للنفس البشرية في كل زمان ومكان، ونلحظ في هذا الحديث الشريف إشارة إلى تعدد السبل، فمنها ما يؤدي إلى مرضاة الله، ومنها ما يضل الإنسان؛ لذلك عمد الرسول ﷺ إلى رسم هذه الخطوط بُغية لفت نظر المبصر إلى أن سبيل الله واحد، فاحتكم إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾، بمعنى أن الصراط واحد، أما السبل فهي متعددة، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾.

---

(١) ينظر: الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم: ١١٨- ١١٩.

(٢) ينظر: روائع البيان في الأمثال النبوية: ٢٩.

(٣) ينظر: مراعاة أحوال الناس في ضوء السنة النبوية: ١٦٤.

(٤) ينظر: بلاغة الإشارة في ضوء الأحاديث النبوية – دراسة دلالية: ١٩.

وقد توقف د. نور الدين عتر عند حديث ابن مسعود ﷺ السابق، فأشار إلى أن (هذا الحديث يقصد إلى أمر غامض مبهم في الشعور يتحكم في تصرف الإنسان وسلوكه، وربما تجاوز الحد بسببه إلى الانحراف أو السقوط، وذلك هو الأمل العريض الذي يراود النفس الإنسانية فصورت لنا الصورة الإيضاحية خطورة مجاوزة الحد في الانجراف مع الآمال وسراب الأوهام)[١]، وقد أشار الباحث إلى أن الإنسان يسير في حدود رُسمت له لا يتخطاها، يبدأ ثم ينتهي، بمعنى أن هناك أجلاً محيطاً لا يمكن مغادرته، إذ إن حركته آخذة في الثبات (بحيث يغدو المرء داخلها سجيناً خاضعاً لسلطة علوية، كما تتجلى جمالية التجسيم في هذا النص حيث عُرضت الموجودات في مربع وخطوط مختلفة... والتخطيط صورة إشارية تترك فسحة للذهن لتملي الإيحاء النفسي الذي يقع خلف الخطوط، فالأمر لا يقتصر على الاهتمام بالشكل الخارجي المرئي؛ لأن الصورة الإشارية موظفة هنا لقضية كبرى في العقيدة وفي السلوك)[٢]، إذ إن المتأمل في الحديث يجد تأكيداً للمحسوس؛ لأن فيه إشارة إلى أمر محتم واقع لا محالة، وإنزالاً لغير الواقع منزلة الواقع المحسوس (وكأن الأعراض، أي: الأحداث تلاحق الإنسان وتفني لحمه، مما يُعطي الخطوط مكاناً فسيحاً في التصوير يشرك الحس والخيال ويثير الرعب، والتجسيم والصورة الإشارية الموضحة في هذا النص يسعيان إلى ما وراء المحسوس، وإذا كان هذا مطلوباً من فن الرسم فالأدب الذي هو فن تعبيري أولى بهذه الوظيفة الجمالية لخصوصية أداته اللغوية التي وجدنا البيان النبوي يملكها أعلى تَملُّك في أدب بني الإنسان وإبداعهم)[٣]، فركز الباحث على مغزى الإشارة النبوية ومقصديتها وإيحائها النفسي لدى المخاطب الذي يتأملها لفهم أبعادها بما تحمله من ترهيب من سوء العاقبة إن خالف الأوامر الإلهية.

---

(١) علم الحديث والدراسات الأدبية: ٢٥٠.

(٢) في ظلال الحديث النبوي: ٢٩٤.

(٣) المصدر نفسه: ٢٩٥.

في حين عدَّها د. مهدي أسعد عرار من المتممات المساندة التي لها لُحمة بالجانب الدلالي التواصلي(١).

وقد سرى تأثير الإشارات والهيئات النبوية التي استعان بها النبي ﷺ فيمن بعده، فقد عمد إليها بعض العلماء المتقدمين في تفسير بعض أقوال النبي ﷺ، فها هو ذا جعفر بن محمد بن علي ﷺ يُسأل عن قول رسول الله ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)(٢)، فيُجيب عن المعنى المُتعَيَّن فيه بالرسم على الأرض، وهو ما نتعارف على تسميته «الوسائل التوضيحية»، فغدا المُتعين منه مرسوماً، وقال: (هَذَا الإِسْلامُ وَدَوَّرَ دَارَةً كَبيرَةً، وَهذَا الإِيمَانُ وَدَوَّرَ دَارَةً صَغيرَةً فِي وَسْطِ الْكَبِيرَةِ، قَالَ: وَالإِيمَانُ مَقْصُورٌ فِي الإِسْلامِ فَإِذَا زَنَى وَسَرَقَ خَرَجَ مِنَ الإِيمَانِ إِلَى الإِسْلامِ وَلا يُخْرِجُهُ مِنَ الإِسْلَامِ إِلا الْكُفْرُ بِاللَّهِ ﷻ)(٣).

ويعدّ د. محمد جابر فياض بعض التمثيلات النبوية من قبيل حركات الجسد، فيجيء هذا التمثيل بصورة إشارة أو خط على الأرض ليتضح المثل للمتلقي(٤).

وقد ذكر د. عز الدين علي السيد أن الإشارة في الحديث النبوي الشريف كانت بديلاً من اللغة وليست وليدة اختناق الفكرة، ومما قاله أيضاً: (للإشارات والحركات والأفعال دلالة عميقة في إيضاح المعاني وترسيخها في النفس، ودارس الحديث النبوي الشريف يرى من ذلك الشيء الكثير الذي يدل على اهتمامه البالغ ﷺ بوسائل الإيضاح في تعليم أمته وشغل الحاسة مع العقل)(٥)، واختناق الفكرة يعني من هذا المنظور أنه لا سبيل إلى إبراز ماهيتها باللغة الصائتة، فكان الانتقال إلى اللغة الصامتة، وهذا غير موجودٍ في البيان النبوي، أما مسألة أنها بديل من اللغة فهذا في قسم من الأحاديث النبوية الشريفة، وفي القسم الآخر كانت مساندة للغة

---

(١) ينظر: البيان بلا لسان: ٢٤٦-٢٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (٢٤٧٥).

(٣) مسند إسحاق بن راهويه: ١/ ٣٨٧، وينظر: البيان بلا لسان: ٢٤٨.

(٤) ينظر: الأمثال في الحديث النبوي الشريف: ٧٧.

(٥) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية: ٧٠.

وليست بديلاً منها كما يشير الباحث، ففي أحاديث كثيرة يأتي اللفظ النبوي مصحوباً بإشارة أو هيئة ما.

ويطالعنا الباحث محمد سعيد بدراسته التي يعد الإشارة فيها من صيغ الأمر، إذ يقول: (قد يكون أمر النبي ﷺ بمجرد الإشارة إلى شخص يومئ له بيده أو برأسه لفعل شيء ما، وهذه صيغة من صيغ الأمر، وقد يكون الدافع على الأمر بالإشارة الحرص على عدم قطع الكلام أو الخطبة)[١]، من ذلك الحديث: (كان رسول الله ﷺ في المسجد فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله بيده أن اخرج، كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته، ففعل الرجل، ثم رجع، فقال رسول الله ﷺ: أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان)[٢]. فنلاحظ توقف الباحث عند هذه الإشارة وعدها صورة من صور التشريع، فالأمر النبوي الصادر لهذا الصحابي الجليل ﷺ كان بإشارة دون استعمال اللغة الصائتة.

أما الباحثة ميسون أحمد فذكرت أن النبي ﷺ كان عندما يمقت اسماً قبيحاً يُغيره إلى اسم حسن، سواء أكان هذا الاسم لإنسان أم حيوان أم مكان، وتبدو معالم مقت هذا الاسم على وجهه الشريف ﷺ[٣]، عن عبد الله بن الشخير ﷺ، قال: (كان رسول الله ﷺ إذا سأل عن اسم الرجل وكان حسناً عُرفَ ذلك في وجهه، وإذا كان غير ذلك كرهه، فإذا نزل بالقرية سأل عن اسمها، فإذا كان اسمها حسناً سُرَّ بذلك، وإن كان غير ذلك رُئيَ ذلك في وجهه)[٤]. فتتوقف الباحثة عند أحد الأسباب المثيرة لهيئات وجهه الشريف، غير أنها لم تُشر إلى ماهية تغيُّر وجهه الشريف، والذي يبدو أن وجهه الشريف يحمرُّ ضيقاً بما يكره ويُشرق بالابتسامة فرحاً بما يسره، إذ إن ملامح الوجه ملمح تعبيري يعتد به في الكشف عن دلالة ما، وقد اعتاد العرب بفراستهم معرفة أشياء جمة عن طريق النظر إلى وجه المقابل، وما يعتريه من تجهم أو سرور، وكلها إيماءات فطرية لا يتصنعها الإنسان.

---

(١) أساليب الطلب في الحديث النبوي الشريف: ١٣٢.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ: (٣٤٩٤).

(٣) ينظر: المقاصد النبوية في الأسماء والتسمية: ٢٤٦.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: (٤٧٠٤).

ونظر بعض الباحثين إلى التشبيه المقرون بالإشارة النبوية أنه يشد السامعين لإقرار المراد في نفوسهم، ومنهم د. عبد الباري طه الذي ذكر حديث جابر ﷺ: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟ فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟ قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ؛ لأَنَّهُ أَسَكُّ[١]، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ)[٢]، ثم قال: (هذا الحديث اشتمل على تشبيه ضمني فُهم من المعنى ومن سياق الكلام، فُهم منه ضمنياً تشبيه الدنيا في هوانها على الله وحقارتها بهذا الجدي الأسك في هوانه وحقارته على الناس... وفيما فعله المصطفى ﷺ من الأخذ بأذن الجدي الأسك الميت في معرض تعليم وتأديب وهداية الصحابة ﷺ والأمة إلى قيمة الدنيا عند الله ما قرر المعنى في النفس ومكَّنه منها فلا يدع فيها تطلعاً إلى ما أُريد التنفير منه والتحقير له، فإذا ما كان الذي يعلمنا هو الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى وكانت النفس غير متوقفة في فقه ما علم فلا يكون إلا التسليم وإلا الامتثال والإذعان لما إليه هدى)[٣]، إذ تبين أن الدلالة التي رام الرسول ﷺ إيصالها إلى المتلقي أسهم السياق أيضاً في إيصالها؛ لأنه لا يمكن تعيين المراد من أية حركة جسدية بمعزل عن السياق الذي انتظمت فيه، ومن العجيب أيضاً أن يأتي هذا الحدث – أقصد: الجدي الميت – في السوق الصاخب بالمال والحركة الدنيوية؛ ليكون نقلة إلى العالم الأُخروي بكل أبعاده ومقاييسه المختلفة عن هذه الدنيا العابرة.

وكذلك فعل د. محمد لطفي الصباغ فقد ذكر حديث أَنَس ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، قَالَ: وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى)[٤]، ثم بيّن أن في هذا التشبيه اعتماداً على الإشارة التي تشد السامعين إلى المتكلم وتقرب للأذهان البعيد، وتمثل المعنى المجرد بصورة حسية، فالرسول الكريم ﷺ بُعث هو والساعة

(١) أي: صَغِيرُ الأذنين. شرح النووي على صحيح مسلم: ٩٣/١٨.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: (٢٩٥٧).
(٣) أثر التشبيه في تصوير المعنى – قراءة في صحيح مسلم: ٣٢٤.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: (٢٩٥١).

متلازمين متجاورين كما تلازم السبابة الوسطى وكما تجاورها... ومن دقة اختيار المشبه به قوله ﷺ: (كهاتين)، فلا يقوم غيرها مقامها، والمراد أنه بعث والساعة قريبة منه، فلو قال: بُعثت على قرب من الساعة، أو: والساعة قريبة مني، لما دلَّ ذلك على ما دل عليه قوله: (كهاتين) وجمع بين السبابة والوسطى(١).

وقد تناول الباحث محمد رفعت أحمد لغة الجسد تحت فقرة «التشبيه في الحركات»، فقال: (اعتمدت بعض التشبيهات النبوية الكريمة على عنصر الحركة، فقد يكون المشبه به حركة أو إشارة أو رسماً بيانياً حتى تستوعب الأذهان المعاني الكبرى، فربما أدت الحركة والإشارة ما لم تؤده الكلمة والعبارة)(٢)، ثم ذكر أمثلة على ذلك مما استخرجه الطيبي من الأحاديث النبوية الشريفة(٣). فالمشبه هو المقصود من لغة الجسد في هذه المواطن، ولتقريب صورته للأذهان كان تشبيهه بإشارة أو حركة جسدية حتى تبرز الصورة أوضح بياناً وأكثر تأثيراً، إذ لو كان المشبه به لفظاً مجرداً لما أحدث ما تُحدثه الإشارة من التأثير في النفوس؛ لتُحوِّل ما ينتج منه إلى سلوك إيجابي في الحياة.

وتكلم د. عودة عبد الله على الاتصال الصامت ومدى تأثيره في الآخرين، إذ تكلم على أنواع الاتصال: الناطق والصامت، وعلى الدلالات المستفادة من الاتصال الصامت، وما يحدث هذا الاتصال من تأثير في الآخرين، وذكر شواهد قرآنية وأخرى من السنة النبوية للتدليل على ذلك(٤)، وتتقارب طروحاته مع طروحات من سبقه في هذا الموضوع، مما يغنينا عن التكرار والإعادة.

أما د. هناء محمود شهاب فقد أشارت إلى تنوع طرائق التعبير في الحديث الشريف ما بين تعبيرات انفعالية تعلو ملامح الوجه الشريف كالتعبير عن مشاعر الغضب أو الكراهة أو الفرح أو الحزن أو القلق، وما بين إشارات حركية متباينة

---

(١) ينظر: التصوير الفني في الحديث النبوي: ٥٩ و ١١١.

(٢) الفنون البيانية في كتاب «الكاشف عن حقائق السنن» للطيبي: ٧١.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٧٢-٧٤.

(٤) ينظر: الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين في ضوء القرآن والسنة: ٧٣ و ٨٠ و ٨٨.

الصورة والكيفية للتعبير عن معانٍ نفسية وعقدية متنوعة، وقد لا تكفي الإشارة الحركية عن التعبير عن مكنون النفس ومتطلبات العقيدة؛ لذا صحبها في مواقف كثيرة اللفظ، فإذا اجتمعا كملت الدلالة عن المعنى المطلوب في ذلك المقام، وقد قسمت القرائن إلى القرائن الحالية، وتتضمن القرائن الدلالية غير الإرادية كالقرائن الدالة على الغضب والكراهية، والرضا والسرور، وتتضمن أيضاً القرائن الدلالية الإرادية كقرينة الملامح كالتبسم والإعراض بالوجه، وقرينة الإشارات والحركات، والقسم الثاني الذي ذكرته يتمثل بالقرائن الدلالية اللفظية من نبر وتنغيم وتكرار(١)

ثم ذكرت الحديث عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: (كُنَّا نَحْمِلُ لَبِنَةً لَبِنَةً وَعَمَّارٌ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ فَيَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: وَيْحَ عَمَّارٍ، تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الجَنَّةِ، وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ عَمَّارٌ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الفِتَنِ)(٢)، ثم بينت تواشج الحركة الجسدية من النبي ﷺ مع كلامه الشريف، ففي ذلك دلالة (على الملاطفة والتكريم للصحابي الجليل ﷺ بأداء حركة معبرة عن ذلك مؤانسة وملاطفة له لما يقوم به من مشقة وجهد؛ لحمله لبنتين لبنتين في بناء المسجد النبوي، إضافة إلى أن الحديث فيه تبشير له بالجنة والفوز بالشهادة، فالحركة والقول في آن واحد بلا تفاوت بينهما في الزمان صعدا في إيصال ذلك المعنى والإحساس به)(٣). فركزت الباحثة في تواشج الاتصالين الصائت والصامت في أداء المعنى المراد؛ بُغية شد نفسية الصحابي الجليل ﷺ وتعزيزها بما حمله له من أخبار مستقبلية مفرحة لا تخلو من فتن ومحن قد تعتريه.

ويعد د. عبد العزيز فتح الله الإشارة –في حدّ ذاتها كوسيلة من وسائل التعبير– نصاً له دلالته المقصودة، قال: (وفي هذا الإطار يمكن أن تُعدُ إشارة الرسول ﷺ إلى كعب بن مالك ﷺ المصاحبة قوله: «يا كعب» نصاً توافرت فيه شروط النصية، حين مرّ بكعب بن مالك وعبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وكان لكعب مالٌ على عبد الله بن أبي حدرد: «فتكلما، فارتفعت أصواتهما، فمرَّ بهما

(١) ينظر: القرائن الدلالية في الحديث النبوي الشريف: ٣١-٣٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (٤٤٧).
(٣) القرائن الدلالية في الحديث النبوي الشريف: ٣٩-٤٠.

رسول الله ﷺ، فقال: يا كعب، فأشار بيده، كأنه يقول: النصف، فأخذ نصفاً مما عليه وترك نصفاً»[١]، فقد كان قوله ﷺ: «يا كعب» وإشارته المفهومة المفيدة دلالةً مقصودة نصاً مفيداً مؤثراً تأثيراً فعالاً في المتلقي، وهو كعب بن مالك ﷺ، ودليل أن إشارته ﷺ تعد نصاً بذاتها فهم الراوي إياها وتصرف كعب بن مالك ﷺ بناءً على ذلك، بل هي أثرت في سلوكه وغيرت من تصرفه، وجعلته يتنازل عن جزء من حقه أو نصف دينه، وساعد على ذلك السياق المحيط، بل هو عمدة في فهم النص، فالإشارة حلّت محل قوله ﷺ: يا كعب خذ النصف ودع النصف الآخر، فقد دلت على جملتين مترابطتين سكت عنهما)[٢]، فحكم الباحث على نصية الإشارة النبوية من خلال استجابة المخاطب، إذ إنه التزم بالأمر النبوي كما لو أنه سمع توجيهاً لفظياً له معايير النصية، فتشابه التأثير لدى المخاطب، وهذا هو الهدف الأساس من عملية الخطاب.

ووقف د. أحمد عارف حجازي عند إشارة السكوت ومدلولاتها، فبيّن أن ثمة دلالات أخرى للسكوت تتبين من سياق الموقف الذي حصل فيه، فقد يكون السكوت كناية عن الإذن والموافقة والرضا والقبول، وقد يكنى به عن الحياء أو الخوف أو الغضب أو الكراهية، وقد يراد بالسكوت التعريض بالانصراف عن المجلس وغير ذلك من الدلالات، وأشار إلى أن السكوت ورد عن النبي ﷺ وهو يحمل دلالات عدة على وفق الموقف الذي ورد فيه[٣]، عن عائشة -رضي الله عنها-: (أن نساء رسول الله ﷺ كن حزبين، فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة -رضي الله عنهن أجمعين- والحزب الآخر أم سلمة -رضي الله عنها- وسائر نساء رسول الله ﷺ، وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أخّرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة بعث صاحب الهدية بها إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فكلم حزب أم سلمة فقلن لها: كلمي رسول الله ﷺ يكلم الناس، فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٢٧٠٦).
(٢) التماسك النصي في الحديث النبوي الشريف: ٥.
(٣) ينظر: دراسات لسانية في الحديث النبوي: ١٣٤-١٣٦.

الله ﷺ هدية فليهدها إليه حيث كان من بيوت نسائه، فكلمته أم سلمة بما قلن، فلم يقل لها شيئاً فسألنها، فقالت: ما قال لي شيئاً، فقلن لها: فكلميه، قالت: فكلمته حين دار إليها أيضاً، فلم يقل لها شيئاً، فسألنها، فقالت: ما قال لي شيئاً، فقلن لها: كلميه حتى يكلمك، فدار إليها، فكلمته، فقال لها: لا تؤذيني في عائشة فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة، فقالت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله)[١]، قال الباحث: (فسكوت النبي ﷺ مع إعراضه كناية عن رفضه لما أرادته أم سلمة – رضي الله عنها– ولعله لم يرد أن يخاطبها بالقول لئلا يثير مزيداً من الغيرة، فلما ألحت عليه كلمها)[٢]. فالسكوت النبوي جاء هنا يحمل إيحاءً نفسياً ومداراة لنفسية المحاورِ، إلا أن الإلحاح في السؤال حث رسول الله ﷺ على ضرورة الإفصاح بُغية الكشف عما كان مسكوتاً عنه، فجاء التصريح بـــ(لا تؤذيني في عائشة)، فدلالة السكوت على الرفض هي الدلالة التي حددها سياق الموقف، وهي التي أراد الباحث إبرازها هنا.

ووقف الباحث محمد شريف الشيخ صالح عند لغة الجسد في السنة النبوية، فجمع مائة وثلاثة وأربعين حديثاً، ولم يزد على ما قاله من سبقه من الباحثين، فقد درس هيئات أعضاء الجسم وحركاته من عين ووجه وعنق ويد وغيرها، وأتى بشواهد على ما يذكر من الأحاديث النبوية الشريفة، واتصفت تعليقاته باليسيرة العابرة، ومما يحسب للباحث أنه اعتني بتخريج الحديث والحكم عليه وبيان درجته من الصحة أو الضعف، ومما ذكره تحت فقرة «عصب الرأس» حديث ابن عباس – رضي الله عنهما– قال: (خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصب رأسه بخرقة، فقعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنه ليس من الناس أحدٌ أمنّ عليّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خُلة الإسلام أفضل، سُدوا عني كل خوخة في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٢٥٨١).
(٢) دراسات لسانية في الحديث النبوي: ١٣٧.

هذا المسجد غير خوخة أبي بكر)[١]، ثم قال: (فالرسول ﷺ عصب رأسه، وقد بين الموقف الاتصالي أن عصبه رأسه لشدة المرض الذي ألمّ به)[٢].

ومما ذكره تحت فقرة «الإسراع في المشي» حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: (صلينا مع رسول الله ﷺ المغرب فرجع من رجع وعقّب من عقّب، فجاء رسول الله ﷺ مسرعاً قد حفزه الناس، وقد حسر عن ركبتيه، فقال: أبشروا هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء يُباهي بكم الملائكة، يقول: انظروا إلى عبادي قد قضوا فريضة وهم ينتظرون أخرى)[٣]، ثم بيّن أن الإسراع في المشي يحمل عدة دلالات، ولم يبين دلالته التي جاءت في هذا الحديث، والتي تحمل البشرى للناس.

وذكر الباحث أحاديث لا تتمثل فيها لغة الجسد كفعل نبوي، وإنما ذكرها النبي ﷺ مبيناً أوصافاً وسلوكيات يطمح إلى أن يتمثل المسلم بها، ومنها قوله ﷺ: (سبعةٌ يُظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)[٤]، ثم قال: (إن الوقوف بين يدي الله ومناجاته لتترك في نفس المؤمن الكثير، ومنها أن تفيض عيناه خوفاً من عقاب الله، وطمعاً كذلك في رحمته ورضاه)[٥]. فهذا الحديث النبوي الشريف لم يحمل لغة جسدية من إشارة أو هيئة، بل هو توجيه يتعلق بسلوكيات يطمح النبي ﷺ إلى أن تتمثل بها أمته.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٤٦٧).

(٢) لغة الجسم في السنة النبوية – دراسة موضوعية: ٤٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه: (٨٠١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (١٤٢٣).

(٥) لغة الجسم في السنة النبوية–دراسة موضوعية: ٥٦. وينظر: الصفحات: (٥٧، ٦٨، ٧٤، ٨٤).

وختم الباحث جهده بذكر جداول لكل هيئة وحركة وعدد مرات ورودها في الأحاديث النبوية الشريفة التي ذكرها، وهذا ما تميز به عمن سبقه من الباحثين المحدثين(١).

وقد درست الباحثة هنادة محمد ماضي وسائل الإيضاح في السنة النبوية، فذكرت الإشارة باليد والأصابع، لكنها لم تذكر باقي أعضاء الجسم كالوجه والعينين والأرجل، وغيرها، وقد درست الأحاديث الواردة في الإشارة باليد واليدين، والإشارة بالإصبع والإصبعين والثلاثة والأربعة والخمسة، وتشبيك الأصابع والعد بالأصابع ووضحت دلالة الإشارة بها، وهدفها كان اكتشاف مدلولات هذه الحركة أو الهيئة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام من الناحية الفقهية والعملية والتعليمية، وقد بلغ عدد الأحاديث التي جمعتها في الإشارة باليد وباليدين خمسة وأربعين حديثاً، وبالإشارة بالإصبع والأصابع أربعين حديثاً جلها أحاديث صحيحة، وقد كان الجهد واضحاً في دراستها للإشارة باليد والأصابع وتوظيفها لبيان أثر ذلك من حيث الفقه والتشريع والتعليم، وأثرها في الإيضاح والاتصال بعد استقراء آراء العلماء عن ذلك وكيفية استنباطهم للمعنى المراد(٢).

وتقترب بعض الدراسات الموضوعية من لغة الجسد من حيث نوعية دراستها، فهناك دراسات للفرح والحزن والبكاء في السنة النبوية، ولا شك في أن هذه الهيئات ما هي في حقيقتها إلا لغة جسد من خلال مواقف معينة+.

ونختم هذا المبحث مع د. مهدي أسعد عرار الذي تميزت دراسته بالدقة والشمول للغة الجسد في الحديث النبوي الشريف، فذكر أحاديث نبوية كثيرة تضمنت حركة أو هيئة معينة أو مظهراً لوجه النبي ﷺ تجاه أمر ما وأثر ذلك في استشراف المعنى المراد(٣)، ومن الأمثلة التي ذكرها الباحث حديث عائشة -رضي الله عنها-:

---

(١) لغة الجسم في السنة النبوية: ١٣٠.

(٢) ينظر: وسائل الإيضاح المادية في الحديث النبوي الشريف -جمعاً وترتيباً ودراسة-: ١٣ و٢٤ و٣٥ و٦٣ و٩٠.

(٣) ينظر: البيان بلا لسان: ٢٠٢-٢٠٤.

(أن النبي ﷺ كان إذا رأى غيماً أو سمع ريحاً عُرفَ في وجهه الكراهية)[١]، والحق أنه معنى قد يثير في النفس استغراباً -كما يشير الباحث- وقد التفتت إلى ذلك عائشة - رضي الله عنها - فسألته عن ذلك قائلة: (يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية، فقال: يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ العَذَابَ، فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا)[٢]. فقراءة هيئات وجهه الشريف من لدن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- كانت تحمل طابعاً غير متعارف عليه حتى علل النبي ﷺ لها ذلك فاتضح المراد.

ومن مظاهر وجهه ﷺ الأخرى التي أشار إليها الباحث (تمعَّر وجهه، احمر وجهه، رُئي الغضب في وجهه)، وبيّن أن الوجه قد يدل أحياناً على الجوع، ولعل من فضول القول أن من يتملكه الجوع قد يُفضي به إلى التقرير عن حاله بلفظه، وقد تشي علائم مخصوصة تُنسب إلى مبحث «الصمتيات» فتكون في إبانتها كاللفظ بل أبلغ في مواضع أُخر[٣]، وقد ورد في حديث ابن مسعود ﷺ: (أن رجلاً من الأنصار أبصر في وجه النبي ﷺ الجوع فدعاه)[٤]، ونبه الباحث على نقطتين في هذا الجانب:

أولهما: فاعلية السياق في الإرشاد إلى دلالة الوجه الشريف، فانسلاخ الحركة من سياقها مَجلبة لتعدد المعاني التي تقع تحتها ولانتسابها إلى ظاهرة المشترك الحركي، فاحمرار الوجه مثلاً قد يكون منبئاً عن الخجل أو الخوف أو المرض، واسترفاد السياق يُعيِّن المعنى المراد من تلك الهيئة الحركية على وجه التعيين، ولذلك كان احمرار وجهه الشريف في سياق ذا دلالة على الفزع، وفي آخر ذا دلالة على الغضب، وفي ثالث على الإنكار.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٤٨٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (٤٨٢٩).

(٣) ينظر: البيان بلا لسان: ٢٠٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (٢٤٥٦).

ثانيهما: لا يمكن إغفال إيماءات الرسول ﷺ، فضلاً عن ملامح وجهه الشريف ﷺ، فهي مصدر من مصادر التشريع، فرؤية الغضب مثلاً في وجهه الشريف قد تؤذن بالقول: إن ما كان سبباً باعثاً على ذلك محرمٌ يؤثم فاعله، أو مكروه يندب تركه، والأمر بالضد في دلالة الفرح أو القبول(١). فهاتان النقطتان هما الفيصل في هذا المبحث، إذ تُحددان كيفية فهم الإشارة بمختلف أنواعها، وعلى ماذا تدل بعد فهمها من سياق الموقف.

وكذلك ذكر الباحث هيئات الرأس ودلالاتها (الرأس المستنكر، الرأس الحزين، الرأس الأشعث)، ودلالات العين (العين المعجبة، العين الفاحصة، العين الباكية)، واليد كذلك (اليد المسلمة، اليد المبايعة)(٢).

فيتبين لنا من خلال استقراء تنظيرات د. مهدي أسعد عرار وتطبيقاته أن هذه اللغة الصامتة التي استنبطت من الحركات والهيئات الكامنة في الوجه أو العينين أو اليدين تمثل لغةً عالميةً متداولة يفهمها من امتلك قسطاً يسيراً من المعرفة، بمعنى أن الدلالة لا تتضح من اللغة حصراً بل من لغة الجسد؛ لذلك قال الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ): (فَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ الْمَعَانِيَ مِنْ الأَلْفَاظِ ضَاعَ وَهَلَكَ وَكَانَ كَمَنْ اسْتَدْبَرَ الْمَغْرِبَ وَهُوَ يَطْلُبُهُ وَمَنْ قَرَّرَ الْمَعَانِيَ أَوَّلا فِي عَقْلِهِ ثُمَّ أَتْبَعَ الْمَعَانِيَ الأَلْفَاظَ فَقَدْ اهْتَدَى)(٣).

وقد أقر الباحث أن الرأس مرتكز الإنسان به استقراره واهتزازه، فإذا ما أخل به شيء انعكس ذلك سلباً على جميع أجزاء الجسم؛ لذلك أكد أن للرأس هيئات مختلفة كالمرفوع والخفيض والمائل، ولكل هيئة دلالة معينة، وآية ذلك ما حدث في وفاة النبي ﷺ، فقد دخل عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ على عائشة -رضي الله عنها- وبيده سواك، وعائشة -رضي الله عنها- مسندةٌ رسول الله ﷺ، فنظر النبي ﷺ إلى السواك نظر الطالب المستعطي، فقام في نفس عائشة -رضي الله عنها- معنى مفاده أنه يريد السواك، فبادرته بالسواك قائلة: آخذه لك؟ فأجاب الرسول ﷺ معتمداً على

(١) ينظر: البيان بلا لسان: ٢٠٩.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢١١ و٢١٦ و٢٢٠.
(٣) المستصفى: ١٨/١.

حركة رأسه الشريف المفضية إلى معنى القبول والقائلة بهزة الرأس إلى الأسفل: نعم، نظراً لما كان يعالجه من شدة ويقاسيه من ألم، فناولته السواك فاشتد عليه مرض الموت، فقالت مستدركة: أُلينه لك؟ فقال برأسه الشريف ثانية أن نعم(١). وقد عقب د. مهدي أسعد عرار قائلاً: (يظهر لنا أننا نقف عند حدث تواصلي بين قطبين اثنين اعتمد فيه القطب الأول في إبانته وتواصله على المجرى الصائت الكلامي، واعتمد فيه الثاني ﷺ على المجرى الصامت الحركي، فانعقد التواصل، واقتُنصت الرسالة، وكان للرأس الشريف فضلٌ ظاهرٌ في ذلك كله، وكان سبيل استدلال إلى المعنى الذي أراده ﷺ)(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٤٤٤٩).
(٢) البيان بلا لسان: ٢١١-٢١٢.

المبحث الثاني:

دلالة اللون

اللون هو: (تَكيفُ ظاهر الأشياء في العين، وهو أيضاً: الكيفية المدركة بالبصر من حمرة وصفرة وغيرهما)(١)، وهو (الصبغة اللونية الدالة على الهيئة التي يتم بها تمييز الأحمر من الأصفر المدركة بالعين لتوفر النور الذي يعمل على إثارة خلايا الدماغ، فينتج عن تلك الإثارة الإحساس باللون)(٢)، ولم تكن الألوان خطوطاً أو مسحات شكلية خالية من دلالات جمالية وتعبيرية ورمزية ووظيفية وفي بعض الأحيان تزيينية، إنها صور تعبر عن موضوعات الحياة وانفعالات الإنسان بها(٣).

وللألوان في الحديث النبوي الشريف دلالات معينة، فلم تأتِ كيفما اتفق، بل جاءت محكمة معبرة عما تحمله من دلالات تُعين على فهم المراد من الحديث النبوي الشريف فيُبصرها المتلقي في غاية الروعة والبهاء.

وقد تنوع تناول الباحثين للألوان في الحديث النبوي الشريف، فمنهم من أفردها بالبحث، ومنهم من تطرق إليها في معرض حديثه عن البلاغة النبوية، ومن هؤلاء د. أحمد ياسوف الذي ذكر الألوان التي وردت في الحديث النبوي الشريف، وكان منهجه أن يذكر اللون الأكثر وروداً، فبدأ بذكر اللون الأبيض، فقال في ذلك: (تكثر في الحديث النبوي صور البياض والسواد تبعاً لثنائية الخير والشر التي بيّنها الحديث، وفي هذا اقتداء بمنهج القرآن، قال تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾(٤)، فيأتي اللون الأبيض رمزاً لبيان الحجة والسنة المحمدية الواضحة، قال النبي ﷺ: (قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)(٥)، وأحياناً يمتزج اللون الأبيض بالنور)(٦).

---

(١) تاج العروس: مادة «لون».

(٢) دلالة اللون في الحديث النبوي الشريف في صحيحي البخاري ومسلم: ١١.

(٣) ينظر: دلالات اللون في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف: ١٣٢.

(٤) سورة آل عمران: ١٠٦.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه: (٤٣).

(٦) الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف: ٦٠٤.

وأشار الباحث إلى أنه لم يذكر في الحديث النبوي الشريف (اللون الزيتي والرمادي والبرتقالي على سبيل المثال، وهذا يعني الدلالة المعهودة والمحدودة للون المقصود، إذ لا تدرج في اللون يعتم على المتلقي، فقد قصد الحديث النبوي الشريف إلى استبعاد الثانوي كالبرتقالي والرمادي والبنفسجي مما يعرف في عصرنا؛ وذلك لندرة وجوده ولعدم عموم تأثيره، بل إنه اختار المظاهر الجلية العامة في الطبيعة، أي: المظاهر الثابتة بألوانها من غير اعتبار لكون هذه الألوان أساسية أم ثانوية، وكانت الكلمة الحديثية تبتغي الغلغلة في كل صدر ما دامت كلمة مفسرة للدين ذات مهمة جليلة)[١]. إذ تكمن مهمة الباحث في تقصي سبب ورود هذا اللون أو ذاك في الحديث النبوي الشريف ودلالته، فليس الأمر أمر لون معين أبيض أو أسود، وإنما المقصود الأثر الذي يُحدثه في الدلالة على المعنى المقصود؛ نظراً إلى ارتباط ذلك بالدلالة الذهنية عند المتلقي.

وقد ذكر الباحث أيضاً الألوان الأخرى، وختم بذكر أكثر الصور اللونية وروداً وهي الصورة الحمراء، ومن جهة الأسلوب الذي اتبعه الباحث فقد سعى إلى اكتشاف الطاقة الروحية للألوان، وأكد علاقة اللون بالفكرة، فلم يعمم الجمال والقبح، بل صنف الألوان بحسب المواقف لا بحسب ماديتها، فذكر إيجابيات للونين الأسود والأحمر[٢]، لأن هناك أموراً نفسية ينبغي مراعاتها في إيراد هذا اللون دون غيره، بمعنى أن المسألة لم تكن اعتباطية، بل هي مدروسة من لدن المبدع بُغية لفت نظر المتلقي إلى المعنى المطلوب والدلالة المقصودة عن طريق السياق الذي يتضمن اللفظ الدال على اللون.

وتبين من خلال الأحاديث النبوية التي درسها الباحث تمكن الفن النبوي من استعمال اللون في مجال التصوير ورمَّز به ليقدمه تعبيراً بدلاً من التصوير في بعض المواقف، إذ يفتش عن الروحي في الحسي، وهذا يدل على قدرة فنية كبيرة اتسمت بها البلاغة النبوية، إذ جاء اللون في الحديث نابعاً من الفكرة، ومجسماً للمجرد ومشكلاً لوحات رائعة، وقد تعامل الباحث مع اللون في الحديث النبوي من

---

(١) المصدر نفسه: ٦٣٨.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٦٠٦.

خلال المتلقي فدلل على الطاقة التعبيرية للألوان لا الرمزية، ولم يُعنَ بإحصاء الألوان وأثر ترددها عند المبدع، فهذا النهج شأن الأدباء في المنهج النفسي ولا ينطبق على الحديث النبوي(١).

أما د. عبد الباري طه سعيد فقد نظر إلى دلالة اللون في الحديث النبوي الشريف من زاوية أخرى، فتوقف عند المشبه به الذي يحمل ألواناً معينة، فذكر دعاء النبي ﷺ: (اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاءِ، وَمِلْءُ الْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، اللهُمَّ طَهِّرْنِي بِالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَالْمَاءِ الْبَارِدِ، اللهُمَّ طَهِّرْنِي مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الْوَسَخِ)(٢)، ثم قال: (وبلاغة التشبيه تظهر في دقة اختياره ﷺ للثوب الأبيض الذي تحتاج تنقيته إلى عناية تامة، وفيه دلالة على أن أثر الذنوب في قلب المسلم كأثر الوسخ في الثوب الأبيض قليله لا يخفى وكثيره يفسد، وفيه دلالة على أن المغفرة تجلو القلب جلاء الماء الثوب الأبيض، وأن علينا أن نحرص على استجداء العفو والمغفرة لتطهير قلوبنا حرصنا على تطهير ملابسنا)(٣).

وكذلك فعلت الباحثة سميرة عزيز، إذ ذكرت قول النبي ﷺ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا ؟ أُمَّتِي هَذِهِ ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ)(٤). ثم قالت: (فشبه ﷺ أتباعه بسواد سد الأفق، ومجيئه باللون الأسود ليعرِّف السامعين بكثرة تلك الحشود، وهو أمر معروف لديهم، فكانوا يطلقون على الأرض الكثيفة الزرع اسم «أرض السواد»، وإن كان الذي أطلقوا عليه السواد هو اللون الأخضر، ولكن غلب عليه السواد لبركة نمائه وشدة كثافته، فأصبح أمر كثرتهم واضحاً وضوحاً لا يخفى على أحد بواسطة هذه المقابلة

(١) ينظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف: ٦٠٧، وما بعدها.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: (٤٧٦).
(٣) أثر التشبيه في تصوير المعنى – قراءة في صحيح مسلم: ٨٤-٨٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (٥٧٠٥).

التي لا تهدف إلى أن تفضل أحد الطرفين على الآخر، إنما ترمي إلى وصف أحدهما بما وصف به الآخر)[١].

فغاية التشبيه تحمل دلالة تعليمية كما تشير الجهود المذكورة آنفاً، وتتلخص في علم المتلقي بما تشير إليه دلالة هذا اللون الوارد في زاوية المشبه به، فيحرص بعد العلم بذلك أن ينتج منه سلوك عملي إيجابي، وهو الذي أشارت إليه الأحاديث النبوية الشريفة.

وقد توقف الباحث عمار إسماعيل أحمد عند تغيُّر دلالة اللون المعين وتنوعها بتنوع السياق والقرائن اللفظية، وأخذ اللون الأحمر مثالاً على ذلك، فتارة يدل على الجمال وتارة أخرى على الغضب والانفعال، فهو لون يبعث على الإثارة والحركة والنشاط، كما يساعد على رفع التنفس، فهو أكثر الألوان حرارة؛ لارتباطه بالنار المشتعلة والدم، ثم ذكر حديث ابن مسعود ﷺ، قال: (قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ قِسْمَةً كَبَعْضِ مَا كَانَ يَقْسِمُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: وَاللَّهِ إِنَّهَا لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، قُلْتُ: أَمَّا أَنَا لأَقُولَنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي أَصْحَابِهِ فَسَارَرْتُهُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَغَضِبَ، حَتَّى وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: قَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ)[٢]، ثم قال الباحث: (إن أشد ما كان يثير رسول الله ﷺ من انفعال يبدو أثره على ملامح وجهه الشريف، فكان يغضب لإشراق نور الله على قلبه ليقيم حقوقه وينفذ أوامره، وليس من قبيل العلو في الأرض وتعظيم المرء نفسه، وطلب تفردها بالرياسة ونفاذ الكلمة في شيء، ولما كان الغضب مذموماً في بعض الأحيان فهو في حقنا، ولا يقاس على ذلك رسول الله ﷺ لما ذكر من أن غضبه كان لله وليس لنفسه)[٣]، وآية ذلك دلالة حرف العطف «ثم» إذ أفاد معنى الترتيب والتراخي، بدليل أن الرسول ﷺ بعد أن هدأ غضبه تراخى قليلاً، فأدت " ثم "، في قوله: (ثُمَّ قَالَ: قَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ لأن الرسول ﷺ لا يستمر غضبه، إذ سرعان ما يهدأ، فحمل هذا التعبير في طياته (أبهى صور الخلق النبوي الكريم، فلم يواجه

(١) أحاديث القيامة في صحيح البخاري – دراسة بلاغية: ١٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (٦١٠٠).
(٣) الكناية في الحديث النبوي الشريف في صحيحي البخاري ومسلم: ٧٢.

رسول الله ﷺ أحداً بما يكرهه، بل يكظم غضبه فيتغير وجهه لذلك، فيفهم أصحابه كراهيته، فالتغيُّر في لون الوجه أو احمراره من آثار الانفعال الغضبي الجسدية، ولغة الملامح هذه على الرغم من أنها ليست تعبيراً لفظياً إلا أنها تتميز ببلاغة التعبير، إذ إن إظهار الغضب من تلك الأمور يكون أوكد بالزجر عنها)[١]. فاستقراء الباحث لدلالة اللون هنا جاءت مبنية على أساس بيان فضيلة الخلق النبوي في كظمه الغيظ وعدم إنفاذه مما يؤدي إلى الأثر الداخلي في نفسه الشريفة، والصحابة ﷺ المتلقون المشاهدون لهذه الهيئة النبوية أدركوا مغزى ذلك وفهموا دلالته من خلال تغيُّر لون وجهه الشريف، وبذلك يكون الباحث قد نظر إلى لغة الجسد من خلال دلالة اللون، فتآزرت الدلالتان (دلالة هيئة الوجه بلغتها الصامتة، ودلالة اللون الأحمر) بما تحملانه من معانٍ جمة، فبان المراد بأتم صورة.

ويطالعنا الباحث حمد محمد فتحي بدراسته لدلالة اللون في الحديث النبوي الشريف في صحيحي البخاري ومسلم التي أفردها بدراسة مستقلة، وقسّم بحثه بين عالمي الغيب والشهادة، فتحدث في القسم الأول عن الأداء اللوني في عالم الشهادة (اللون وأثره في السلوك الإنساني، ألوان النبات والحيوان، ألوان الفتن وعلامات الساعة) ، وتحدث في القسم الثاني عن الأداء اللوني في عالم الغيب (اللون للترغيب، اللون للترهيب، الأداء اللوني في مشاهد الغيب الأخرى) ، وبيّن أن المراد بدلالة اللون: الدلالة السياقية، أي: سياق النص وما ينطوي عليه من معانٍ ودلالات عميقة داخل أُفق النص؛ (لأن اللون نتيجة وصفية وقد يخرج عن نطاق تلك الوصفية فيغدو اسماً لكثير من الموصوفات عندما تتغلب الصفة على الموصوف؛ لذا كان لابد من التوجه نحو جمالية اللون عبر السياق فقط، إذ إن السياق هو الذي يُحدد دلالة اللون من خلال تفاعل الدلالة اللونية مع دلالة الكلمات المجاورة لها في سياق الحديث النبوي، لذلك تنبع دلالة اللون في الحديث من أنها تشكل جزءاً أساسياً من نسيج النص النبوي، فاللون على الرغم من أنه عنصر أقرب ما يكون إلى عالم

(١) الكناية في الحديث النبوي الشريف في صحيحي البخاري ومسلم: ٧٣.

الرسم فإنه يمتلك فاعلية بصرية تخاطب الوجدان والشعور، وهو بهذا يتحول إلى مؤشر أو دال حين يوضع ضمن سياق لغوي)[١].

ومما ذكره الباحث تحت مبحث «ألوان الفتن وعلامات الساعة» قوله ﷺ: (تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ)[٢]، نلحظ أن الرسول ﷺ أبان في هذا الحديث الشريف عن كثافة تلك الفتن وكثرتها التي تعرض على القلوب، فهي ابتلاء وامتحان واختبار، إذ إنها (تلتصق بعرض القلوب، أي: جانبها، كما يلصق الحصير بجنب النائم، ويؤثر فيه شدة التصاقها به، وعوداً عوداً، أي: تعاد وتتكرر شيئاً بعد شيء)[٣]، وبرز في الحديث الشريف –كما يشير الباحث– استعمال (النص بطريقة مباشرة تصريحية من خلال المقابلة الدلالية الحاصلة بين اللونين الأبيض والأسود، فالجمالية تكمن في المقابلة الدلالية، وهذا ما يعزز دور السياق الداخلي، فاللون الأبيض علامة متجذرة ومترسخة في طبيعة الخير لما قد تعورف عليه... أما الدلالة السوداء فقد عرف عند العرب أيضاً بدلالته على الشر، فقد تشاءموا من هذا اللون؛ لذلك وظفه الرسول ﷺ ليحقق عند السامعين أقصى غايات الاشمئزاز النفسي الذي يوحيه لهم هذا اللون، فالنكتة السوداء دلالة على البت في الأمر والثبوت... ثم يأتي استخدام التشبيه عبر الدوال اللونية (أبيض مثل الصفا، وأسود مرباداً كالكوز مجخياً)... وبهذا يكون التشبيه به في الدال اللوني الأول بالصفا، أي: أن الفتن لم تلتصق به، ولم تؤثر فيه كالصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، أما تشبيهه بالأسود المرباد، أي: أنه قلب لا يعلق خير ولا حكمة)[٤]. فالمتأمل في قول الباحث يجد تقابلاً دلالياً بين النكتة السوداء التي مثلت

(١) دلالة اللون في الحديث النبوي الشريف في صحيحي البخاري ومسلم: ١٨.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: (١٤٤).
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٧٢/٢.
(٤) دلالة اللون في الحديث النبوي الشريف في صحيحي البخاري ومسلم: ١٠٠– ١٠١.

الثبات والانتهاء والقلب الأسود، والبيضاء التي مثلت النقاء والطهر والقلب الأبيض، بمعنى أن هناك بعدين: إيجابي والآخر سلبي.

ومن النتائج التي توصل إليها الباحث (ورود ألوان أساسية مباشرة في الحديث النبوي الشريف وهي (الأسود، والأبيض، والأحمر، والأخضر، والأصفر) عدا الأزرق الذي لم يرد في الصحيحين إلا بشكل ضمني، وقد شكل اللونان الأسود والأبيض وما ركب منهما من ألوان النسبة الأعلى بين نسب مفردات الألوان الأخرى، فبالنسبة للون الأسود ورد بالترتيب الأول (٢١) إحدى وعشرون مرة، أما اللون الأبيض فقد حظي بالترتيب الثاني (١٩) تسع عشرة مرة، أما اللون الأحمر فقد كان بالترتيب الثالث (١٢) اثنتي عشرة مرة، واللون الأخضر كان بالترتيب الرابع (٨) ثمان مرات، والأصفر (٦) مرات، كل تلك الألوان وردت باللفظ المباشر الصريح، أما الألوان الثانوية الضمنية فقد تكررت (٣٩) تسعاً وثلاثين مرة، أما المركبة فقد ورد ذكرها بعدد (٥) خمس مرات، فيتضح أن العدد الكلي للمجموعتين الأساسية التصريحية والثانوية الضمنية (١٠٤) مئة وأربع مرات. ومن خلال التطبيق في نصوص الحديث النبوي الشريف تبين أن اللون كان وثيق الصلة بمباحث البلاغة كالكناية والاستعارة والتشبيه وبنية التضاد)[1].

بعد هذه الوقفات مع دراسات الباحثين في هذا الموضوع يتبين لنا أن أغلب هذه الدراسات حول الدلالة اللونية في الحديث النبوي الشريف تربط بين اللون الوارد في الحديث ودلالته الذهنية المعهودة في ذهن المتلقي، فالإثارة تحمل بعداً ثقافياً يعتمد بالدرجة الأساس على ما تعورف عليه من دلالات للألوان في مجتمع الناس، وتميز جهد الباحث الأخير في هذا الموضوع بالإحصاء العددي للألوان في الصحيحين، وبذلك تميز عمن سبقه من الباحثين.

(١) دلالة اللون في الحديث النبوي الشريف في صحيحي البخاري ومسلم: ١١٢- ١١٣.

المبحث الثالث:

الحقول الدلالية

نظرية الحقول الدلالية من النظريات الحديثة، إذ ظهرت في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين على أيدي علماء سويسريين وألمان تتمحور حول مجموعة الألفاظ التي ترتبط دلالاتها، ويمكن أن توضع تحت لفظ عام يجمعها كألفاظ اللون مثلاً، وهدف هذا النوع من الدراسات يتمثل في جمع الكلمات التي يمكن أن تصنف ضمن حقل معين والكشف عن صلات هذه الألفاظ بعضها ببعض، ثم صلتها بالمصطلح العام دون إغفال للسياق، وتعد من النظريات المهمة في علم الدلالة التي تناولت مسألة المعنى(١).

وهذه النظرية قائمة على أساس تقسيم اللغة على مجموعات من الألفاظ تحمل دلالات بعضها مترابط ببعض، بنوع من الترابط، وهذا الترابط يكون حقلاً أو مجالاً دلالياً، ويطلق عليه لفظ عام، ويضم كل أفراد هذا الحقل، فلو تأملنا مثلاً كلمات (أخضر، أصفر، أزرق، أسود...) لوجدنا أنها مفردات غير داخلة في تراكيب، وهي قائمة بذاتها، يوجد بينها ترابط واشتراك، وهو دلالتها على الألوان لذلك وضعت تحت مصطلح عام وهو كلمة لون(٢).

ولما كانت فكرة الحقول الدلالية قد اتسمت بشمولها واحتوائها مفردات اللغة كلها، فقد تنوعت الحقول والمجالات، تبعاً لتنوع مفردات اللغة، فلم يكن من الممكن حصرها في حقل أو مجال معين، فظهرت مجالات أو حقول متنوعة منها: القرابة والدين، وألفاظ الأصوات، والألوان، وألفاظ الحركة، والنبات، والأرض، والأدوية، والطبخ، والأوعية، وقطع الأثاث، والخواص الفكرية... الخ(٣).

---

(١) ينظر: علم الدلالة ٧٩، وتوظيف الحقل الدلالي في البيان القرآني – الوجه الإنساني أنموذجاً: ١٤٩.

(٢) ينظر: علم الدلالة: ٨٠.

(٣) ينظر: علم الدلالة: ٨٣.

ولكي نتوصل إلى دلالة كلمة ما ينبغي أن نفهم مجموعة الكلمات المتصلة بها دلالياً، فمعنى الكلمة هو محصلة علاقاتها بالكلمات الأخرى داخل الحقل المعجمي أو الحقل الدلالي، فالحرارة تفهم بتمييز البرودة، وتبعاً لهذا التمييز يتغير مفهومنا للحرارة، حتى إنا عند التأمل نطلق على درجة الحرارة نفسها وصف الحرارة مرة ووصف البرودة مرة أخرى(١).

وكما أن إدراكنا العقلي للمعاني لا يقتصر على مجرد توزيعها في مجموعات (بل يتعداها إلى عملية هي أشبه ما تكون بحالة المطرقة التي تدق جرساً تتصل به مجموعة من الأجراس المتوالية في كل الاتجاهات، يقوم الرمز اللغوي الذي يصل الذهن بدور المطرقة وتكون مجموعة الأجراس هي مجموعة المعاني ذات العلاقة الدلالية بمعنى الرمز وتمثل اللغة الصادرة من هذه الحركة ككل المعنى الحقيقي للرمز في ذهن المتلقي، وبذلك فإن نقصان جرس من الأجراس ذات العلاقة أو تغير دلالته سيترك أثره في معنى الرمز الذي يتلقاه الذهن، وأوضح مثال يجلي هذه العملية ما نراه خلال السنوات التي يتعلم فيها الطفل اللغة، فهو حين يتعلم كلمة (شجرة) مثلاً يطلقها على كل أنواع النباتات وأجزائها إلى أن يتعلم كلمة جديدة من نفس الحقل ككلمة (وردة) مثلاً، فيخرج ما تشير إليه كلمة (وردة) من مفهومه السابق لمعنى الشجرة، وهكذا يضيق هذا المفهوم، وقد يرتبط بذهنه اللون الأخضر فيرى أنه لم يتم استبعاد الوردة إلا لأنها ليست خضراء، وهكذا يستمر في إطلاق كلمة (شجرة) على الحشائش برابط سمة اللون، حتى يتعلم كلمة (حشائش) فيضيق مفهومه عن الشجرة)(٢)، وفي ضوء ذلك يتبين أن لتعلم كلمة جديدة في الحقل أثراً في معنى الكلمات الأُخرى، لذلك يتوجب البحث في دراسة العلاقات التي تربط بين الكلمات المجموعة في هذا الحقل أو المجال الدلالي، ودراسة علاقاتها بالعنوان أو الإطار العام الذي يتضمن مجموعة هذه الكلمات، فمعنى الكلمة إنما يتحدد بشكل

(١) ينظر: في بنية الحقول الدلالية: ٧٥- ٧٦.

(٢) ألفاظ الأخلاق في صحيح الإمام البخاري – دراسة في ضوء نظرية الحقول الدلالية: ١٢.

دقيق بملاحظة هذه العلاقات، وهذه العلاقات هي: الترادف، والاشتمال، وعلاقة الجزء بالكل، والتضاد، والتنافر(١).

وقد درس الباحث محمد عبد الرحمن الزامل ألفاظ الأخلاق في صحيح البخاري في ضوء نظرية الحقول الدلالية، وتساءل أولاً: هل عرف علماء العربية الأوائل نظرية الحقول الدلالية ؟ وهل طبقوها في مصنفاتهم ؟

وأجاب: بحسب نظرية الحقول الدلالية فإن الباحث يقوم بثلاث مراحل رئيسة:

المرحلة الأولى: جمع المادة اللغوية.

المرحلة الثانية: تصنيفها على وفق حقولها الدلالية.

المرحلة الثالثة: دراسة العلاقات الدلالية بين كلمات كل حقل.

لذلك فإن الوصول إلى حقيقة موضوعية حول قضية مدى معرفة اللغويين العرب السابقين لنظرية الحقول الدلالية وتمثلهم لها في كتبهم تحتاج إلى التساؤل عن مدى توافر المراحل الثلاث المشار إليها آنفاً، هل جمع اللغوي العربي كل المادة اللغوية ؟ هل صنفها على وفق حقول ؟ هل درس العلاقات الدلالية بينها إيماناً بأن درس مثل هذه العلاقات هو السبيل إلى الوصول إلى المعنى الحقيقي للكلمة ؟

وقد توقف الباحث عند مجموعة من كتب العلماء على وفق هذه الضوابط، وبيّن مدى التقارب بين مضامينها وبين مضامين نظرية الحقول الدلالية، ومن هذه الكتب (كتاب «الخيل» لمعمر بن المثنى، وكتب الأصمعي «النبات» و«الإبل» و«خلق الإنسان»، وكتاب «الريح» لابن خالويه، وكتاب «الملمع» للنمري) وغيرها من الكتب الأخرى(٢).

وبدأ الباحث دراسته بالوقوف عند المجالات الدلالية لألفاظ الأخلاق، وهذا الجانب هو الميدان التطبيقي في عمل الباحث، إذ ذكر سبعة عشر حقلاً دلالياً ودرس العلاقات الدلالية بين ألفاظها موضحاً ذلك بجداول تحليلية بيانية.

---

(١) ينظر: ألفاظ الأخلاق في صحيح الإمام البخاري – دراسة في ضوء نظرية الحقول الدلالية: ١٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٢-٦٤.

وقد أسهمت هذه النظرية من خلال تطبيقات الباحث في إيجاد فهم علمي لظاهرة الإيحاء التي تبرز بشكل واضح في الكتابة الأدبية؛ لأن جزءاً كبيراً من طاقة الكلمة الإيحائية يكمن بعلاقاتها الدلالية مع الألفاظ الأخرى في حقلها، وكذلك أظهرت الدراسة عدم وجود علاقة جزء من كل في حقل الأخلاق، مما يعني أن المفاهيم الأخلاقية في حس الناطق العربي غير قابلة للتجزيء(١).

ولنأخذ مثالاً من عمل الباحث، وهو ما ذكره في الحقل الحادي عشر (حقل الألفاظ المرتبطة بالأخبار)، فوقف أولاً عند هذه الألفاظ وفسرها بالاعتماد على المعاجم اللغوية، ثم ذكر الأحاديث النبوية التي احتوت هذه الألفاظ موضع الشاهد، وهذه الألفاظ هي:

١- النميمة:

يقول ابن فارس: (النون والميم أصل صحيح له معنيان: أحدهما إظهار الشيء وإبرازه، والآخر لون من الألوان، فالأول النمام منه؛ لأنه لا يبقي الكلام في جوفه)(٢).

ويقول ابن الأثير في «النهاية»: (تكرر في الحديث ذكر النميمة، وهو نقل الحديث من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر)(٣). وجاءت في سياقات منها قوله ﷺ: (إنهما ليعذبان، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ)(٤).

٢-القت:

في «مقاييس اللغة»: (القاف والتاء فيه كلمتان متباينتان إحداهما القت: وهو نمّ الحديث)(٥)، وعند ابن منظور: (في الحديث: «لا يدخل الجنة قتات» هو

---

(١) ينظر: ألفاظ الأخلاق في صحيح الإمام البخاري – دراسة في ضوء نظرية الحقول الدلالية: ١٨٥.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٥/ ٣٥٨.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ١٢٠.

(٤) أخرجه البخاري في " صحيحه " (٢١٨) .

(٥) معجم مقاييس اللغة ٥/ ٦.

النمام)[١]، وفي تاج العروس: (القت: نم الحديث، وهو إبلاغه على جهة الإفساد)[٢]. وجاءت في سياق واحد ليس غير، وهو قوله ﷺ: (لا يدخل الجنة قتات)[٣].

٣- التحسس: في مقاييس اللغة: (الحاء والسين أصلان: فالأول غلبة الشيء بقتل أو غيره، والثاني حكاية صوت عند توجع وشبهه، فالأول الحس: القتل، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾[٤]، ومن هذا الباب قولهم: أحسست، أي: علمت بالشيء، قال الله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾[٥]، وهذا محمول على قولهم: قتلت الشيء علماً، فقد عاد إلى الأصل الذي ذكرناه)[٦]، وفي لسان العرب: (تحسس الخبر: تطلبه وتبحثه، وتحسست من الشيء، أي: تخبرت خبره)[٧]، ويذكر ابن حجر أن التحسس معناه: (لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تتبعوها)[٨]، ومعنى التحسس عند ابن حجر: ترك البحث عن عيوب الناس وعدم اتباعها، ومن أمثلة سياقات اللفظة في الصحيح قوله ﷺ: (ولا تحسسوا)[٩].

٤- التجسس: في مقاييس اللغة: (الجيم والسين أصل واحد، وهو تعرف الشيء بمس لطيف، والجاسوس فاعول من هذا؛ لأنه يتخبر ما يريده بخفاء ولطف)[١٠]، وفي اللسان: (الجس: جس الخبر ومنه التجسس، وجس الخبر وتجسسه: بحث عنه وفحص، وتجسست الخبر وتحسسته بمعنى واحد، والجاسوس: العين يتجسس

---

(١) لسان العرب مادة «قتت».
(٢) تاج العروس مادة «قتت».
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (٦٠٥٦).
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.
(٥) سورة مريم: الآية ٩٨.
(٦) معجم مقاييس اللغة: ٢/٩.
(٧) لسان العرب مادة «حسس».
(٨) فتح الباري: ١٠/٥٩١.
(٩) أخرجه البخاري في صحيحه: (٥١٤٣).
(١٠) معجم مقاييس اللغة: ١/٤١٤.

الأخبار ثم يأتي بها)[١]، وعند الزبيدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾[٢]، أي: (خذوا ما ظهر ودعوا ما ستر الله ﷻ، أو لا تفحصوا عن بواطن الأمور، أو لا تبحثوا عن العورات)[٣]، وفي الصحيح من سياقات اللفظة قوله ﷺ: (ولا تجسسوا)[٤]، وبعد هذه التفسيرات للألفاظ الداخلة تحت هذا الحقل، أنشأ الباحث جدولاً يوضح نقاط الالتقاء الدلالي بين هذه الألفاظ، فكان على النحو الآتي:

الألفاظ	الملامح					
	(١) نقل	(٢) بحث	(٣) الأخبار	(٤) بين الأقوام	(٥) للإفساد	(٦) الباطنة
١ـ النميمة	+		+	+	+	
٢ـ القت	+		+	+	+	
٣ ـ التحسس		+	+			+
٤ـ التجسس		+	+			+

وذكر الباحث جدولاً بيانياً لأنواع العلاقات الدلالية بين الألفاظ، فكان على النحو الآتي[٥]:

	(١) النميمة	(٢) القت	(٣) التحسس	(٤) التجسس
١ـ النميمة	=	ف		
٢ـ القت	ف	=		
٣ـ التحسس			=	ف
٤ـ التجسس			ف	=

ثم خرج الباحث بنتيجة بعد قراءة تحليلية لجدول العلاقات مفادها أن الجدول يبين علاقة ترادف بين النميمة والقت اللتين تتضمنان الملامح الدلالية ذاتها: «نقل»، «الأخبار»، «بين الأقوام»، «للإفساد»، وكذلك علاقة ترادف أخرى بين «التحسس

(١) لسان العرب مادة «جسس».
(٢) سورة الحجرات: الآية ١٢.
(٣) تاج العروس مادة «جسس».
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (٥١٤٣).
(٥) مفاتيح الرموز: =: الكلمة ذاتها، ل: اشتمال، ف: ترادف، ر: تنافر، د: تضاد

والتجسس»، فكلتا اللفظتين تتضمنان ملامح «بحث»، «الأخبار»، «الباطنة»، ولا يسجل الجدول أية علاقة اشتمال أو تنافر أو تضاد أو جزء من كل(١).

ويمكننا أن نعد تطبيقات الباحث واضحة جلية في ترجمة أصول نظرية الحقول الدلالية إلى تطبيق عملي على نصوص الحديث الشريف، فقد أبرز العلاقات بين الألفاظ بصورة دقيقة أسهمت في تكوين صورة عن الألفاظ التي استهدفها في دراسته هذه، ويتفوق جهده على جهد الباحث أحمد عاشور جعاز الذي توقف عند الأحاديث النبوية التي تخص الجانب العبادي ودرسها من خلال هذه النظرية، فدرس دلالة الألفاظ والتراكيب التي احتوتها هذه الأحاديث النبوية، ويختلط في عمل الباحث الفقه باللغة ولا يتضح عمله في ظل نظرية الحقول الدلالية التي اتخذها منهجاً في دراسته وضوحاً تاماً، وإنما يشير إليها إشارات قد لا تتضح أحياناً، فدراسته تعنى بجميع الألفاظ الواردة في سياق أحاديث التعبد، وتحليلها تحليلاً لغوياً قائماً على متابعة المعنى اللغوي، ومن ثم بيان التطور الدلالي الذي أحدثه استعمال الرسول ﷺ، وأثر ذلك التطور في تحديد المعنى النهائي للفظة، ومن ثم فهم خصيصة العبادة المرادة من هذا اللفظ، كذلك أشار إلى تشارك التراكيب اللغوية في أحاديث التعبد في تحديد المعنى المراد، فهذه الألفاظ المترابطة مع بعضها في سياق المقام تؤدي معنًى جديداً من معاني النبي ﷺ أراد أن يظهره للناس بهذا التركيب، ذلك أن كثيراً من الألفاظ لا تستطيع أن تقدم لنا معنى مستقلاً بنفسها إلا في تآلفها مع ألفاظ أخرى فتكوّن تركيباً لغوياً يساعد على بيان المعنى المراد.

فمثلاً عند توقفه عند دلالة ألفاظ الزكاة ذكر معنى الزكاة لغة واصطلاحاً ومترادفاتها، فبين أن أصل الزكاة في اللغة العربية (من الزكاء وَهُوَ النَّمَاء وَالزِّيَادَة، سميت بذلك لأَنَّهَا تثمر المَال وتنميه، يُقَال زكا الزَّرْع: إِذا كثر ريعه، وزكت النَّفَقَة: إِذا بورك فِيهَا)(٢)، وقد اكتسبت هذه اللفظة في الإسلام معنى جديداً لم يكن معروفاً عند العرب من قبل، فصارت الزكاة في لغة الشرع: ما (يُخرجُ الإنسان من حق الله

(١) ينظر: ألفاظ الأخلاق في صحيح الإمام البخاري – دراسة في ضوء نظرية الحقول الدلالية: ١٤٢-١٤٦.

(٢) ينظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ١/١٨٤.

تعالى إلى الفقراء)[١]، أي أنها: (عبارة عن إيجاب طائفة من المال، في مال مخصوص، لمالك مخصوص)[٢].

وعلى ذلك فإن (الزكاة من الألفاظ التي أضاف إليها الشرع معنى جديداً، بأن يخرج المسلم جزءاً من ماله بنسبة محددة إلى أصناف من الفقراء والمحتاجين، راجياً بركة الله تعالى، وخيراته التي يَمُنّ بها عليه، فينمو ماله، ويزداد بفضل الله تعالى، وعند إطلاق لفظ الزكاة ينصرف الذهن إلى معناها الشرعي الجديد، وذلك كله يدل على أن اللفظة أصابها التغيير وقد توسع مدلولها، وعليه فقد تخصصت لفظة الزكاة بهذا المعنى الذي استحدثه الإسلام؛ لأن المعنى المألوف كان يدور حول الزيادة والنماء)[٣].

ومن مترادفات الزكاة التي ذكرها الباحث وفسّرها بالاعتماد على المعاجم اللغوية:

١- الصدقة:

وردت في اللغة معان عدة لهذه المادة، فالصدق بالكسر: (الشدة، ومنه اشتق الصدق الذي هو نقيض الكذب)[٤]، ويقال أيضاً: (صَدَقَ يَصْدُقُ صَدْقاً وصِدَقاً وتِصْداقاً وصَدّقهُ: قبلِ قوله)[٥]: وقولهم: (رجلٌ صَدْقٌ إذا كان صُلباً)[٦]، قال الجوهري: (والصداقة والمصادقة: المُخالّة، والرجل صديق والأنثى صديق، والجمع أصدقاء، وقد يقال للواحد والجمع والمؤنث: صديق)[٧].

أما الصدقة في لغة الشرع فقد أخذت معنى آخر يعد جديداً في نفسه، فهي: العطية تُبتغى بها المثوبة من الله تعالى.

---

(١) المفردات: ٣٨١.

(٢) التعريفات: ٦٧.

(٣) ينظر: أحاديث التعبد النبوية في ضوء نظرية الحقول الدلالية: ٢٥٩.

(٤) ينظر: المثلث ٢/٢٢٥.

(٥) ينظر: المفردات: ٤٧٩، ولسان العرب مادة «صدق».

(٦) ينظر: الصحاح مادة «صدق».

(٧) الصحاح مادة «صدق».

والملاحظ أن العلماء اختلفوا في تحديد ماهية الصدقة من حيث دلالتها على الزكاة فبعضهم ذهب إلى أنها والزكاة بمعنى واحد لا اختلاف فيه.

وبعضهم فرق بينهما من حيث المعنى، قال الراغب: (والصدقة: ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة كالزكاة، لكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوع به، والزكاة للواجب، وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبها الصدق في فعله)(١).

وبذلك تكون هذه اللفظة جديدة بمعناها الإسلامي، لم تكن معروفة من قبل بهذا المعنى، وهو معنى الزكاة المعروفة شرعاً، وغيره من الإنفاق في سبيل طاعة الله تعالى(٢).

٢- الماعون:

الماعون في اللغة: مأخوذ من المَعْن وهو الشيء اليسير الهيّن والماعون اسم جامع لمعان عدة، وقد اختلف المفسرون واللغويون وشراح الحديث فيما تدل عليه هذه اللفظة من معان، فقد نقل عن يونس بن حبيب: أن الماعون في الجاهلية كل عطية ومنفعة، ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الماعون: المعروف كله بما في ذلك القدر والقصعة والفأس(٣)، ونقل عن علي ﷺ: أن الماعون هو الزكاة(٤)، وفي ضوء المعاني المتقدمة كلها، ذهب كثير من العلماء إلى أن الماعون يأتي بمعنى الزكاة والصدقة في لغة الشرع ويمكن حمل هذا المعنى على قولة تعالى: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾(٥)، أي: يمنعون الزكاة المفروضة عليهم أو الصدقات، والله أعلم.

---

(١) المفردات: ٤٨٠، وينظر الأدب النبوي: ٣٤.

(٢) ينظر: أحاديث التعبد النبوية في ضوء نظرية الحقول الدلالية: ٢٥٨.

(٣) ينظر: الزاهر: ٤١٦/١.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤١٦/١.

(٥) سورة الماعون: الآية ٧.

وعلى هذه الشاكلة يمضي الباحث في تفسير الألفاظ الأخرى المرادفة للزكاة كالإنفاق، والذي ذكر فيه أن كل زكاة هي نفسها إنفاق، ويدخل في مورد الوجوب، وكل إنفاق هو نفسه زكاة، ويدخل أيضاً في مورد الإيجاب، وهو أيضاً صدقة يدخل في مورد المندوب، وعليه فكلا المعنيين جائزٌ في هذا المقام، لأن لفظ الإنفاق يستوعبها، وعليه فقط أصبح (الإنفاق) مصطلحاً إسلامياً جديداً بمعناه الشرعي الدال على إعطاء الفقراء والمحتاجين قدراً من المال لإعانتهم تقرباً لله تعالى، إذ يترتب عليه الأجر والثواب(١)، فعلاقة الترادف هي العلاقة الأصلية بين لفظ الزكاة والألفاظ المترادفة الأخرى، وللسياق دور في تحديد معاني هذه الألفاظ حين ورودها، ولم يشر الباحث إلى علاقات أخرى بين مدلولات هذه الألفاظ.

أما دلالة التراكيب فنأخذ منها ما ذكره عن تراكيب الحج، إذ بين أن من هذه التراكيب: تركيب" دخلت العمرة في الحج ":

قال الراغب: (الدخول: نقيض الخروج، ويُستعمل ذلك في المكان والزمان والأعمال يُقال: دَخَلَ مكان كذا، قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾(٢)... والدَخَلُ كناية عن الفساد والعداوة المستنبطة، كالدّغَلِ، وعن الدعوة في النسب، يقال: دُخِلَ دَخَلاً... فيقال: دُخِلَ فلان فهو مَدْخُولٌ كناية عن بَلَهٍ في عقله وفساد في أصله، ومنه قيل: شجرةٌ مَدْخُولَةٌ)(٣).

وقد ورد هذا اللفظ –كما يشير الباحث– مضموماً إلى ألفاظ أخرى في تركيب لغوي استعمله الرسول ﷺ في مقام الحديث عن الحج وأحكامه، قال الرسول ﷺ: (هَذِهِ عُمْرَةٌ اسْتَمْتَعْنَاهَا، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ هَدْيٌ فَلْيَحِلَّ الْحِلَّ كُلَّهُ، فَقَدْ دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ)(٤).

(١) ينظر: أحاديث التعبد النبوية في ضوء نظرية الحقول الدلالية: ٢٦٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٠.

(٣) المفردات: ٣٠٩.

(٤) أخرجه النسائي في السنن الصغرى: ١٨١/٥.

وقد تناول العلماء قوله: (دخلت العمرة في الحج) بالدراسة والبحث عن دلالته الشرعية، قال الخطابي: (وقوله: دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة، مختلف في تأويله، يتنازعه الفريقان موجدوها ونافوها فرضاً، فممن قال إنها واجبة كوجوب الحج عطاء وطاووس ومجاهد، وقال أصحاب الرأي ليست العمرة واجبة، قلت: فوجه الاستدلال من قوله: (دخلت العمرة في الحج) لمن لا يراها واجبة: إن فرضها ساقط بالحج وهو معنى دخولها فيه، ومن أوجبها يتأوله على وجهين: أحدها: أن عمل العمرة قد دخل في عمل الحج، فلا يرى على القارن أكثر من طواف واحد وسعي واحد، كما لا يرى عليه أكثر من إحرام واحد. والوجه الآخر: أنها دخلت في وقت الحج وشهوره، وكان أهل الجاهلية لا يعتمرون في أشهر الحج، فأبطل رسول الله ﷺ ذلك بهذا القول)[١].

وكذلك فعل الباحث مع التراكيب الأخرى التي ذكرت مع الحج، كتركيب: «إلاّ الإذْخِرُ»، و«ارفضي عمرتك»، و«هذه عمرة استمتعنا بها»، ويُفسر الباحث هذه التراكيب من حيث دلالتها الفقهية[٢]، وأنها لازمة الذكر في موضوع الحج بتراكيبها هذه، فلم تذكر في غير موضع، وإذا كان الباحث ذكر أولاً مترادفات كل لفظ تعبدي بعلاقة الترادف التي تنضوي تحته بِعدِّها من العلاقات المكونة لنظرية الحقول الدلالية، فإن التراكيب جاءت هنا بلا بيان منه على أية علاقة يمكن أن تصنف مع لفظ الحج الصريح.

أما الباحثة وفاء نايب فقد وقفت عند عشرة أحاديث نبوية احتوت على التمثيل ضمن نظرية «الحقول الدلالية»، وقد صنفت المفردات في هذه الأحاديث إلى محسوسات ومجردات بصيغة إجمالية، ومما وضعته في حقل المحسوسات المفردات: «المسك، السفينة، الأترجة، الحنظلة، الصدقة...»، ومما وضعته في حقل المجردات المفردات «الدنيا، اليتيم، الصراط، الهجرة، الشيطان...»، ووصلت الباحثة إلى نتيجة مفادها طغيان حقل الماديات على حقل المعنويات وهذا ما يفرضه أسلوب التمثيل بهدف تقريب المعنى وذلك بإبراز المعاني وإيضاحها في صورة

(١) معالم السنن: ٢/١٦٥-١٦٦.

(٢) ينظر: أحاديث التعبد النبوية في ضوء نظرية الحقول الدلالية: ٤٦٤- ٤٦٧.

محسوسات، فقد انتهج الخطاب النبوي أسلوب التمثيل بهدف تقريب الرؤى وإيضاح المجهول بالمعلوم والخفي بالجلي، ثم عمدت الباحثة إلى التصنيف الجزئي لهذه الحقول الدلالية واعتمدت في ذلك على طبيعة العلاقات الدلالية بين المفردات، فكان الجدول الآتي:

علاقة النوع	علاقة الضد	علاقة الهوية	علاقة الجنس
الأترجة، الحنظلة...	**البخيل – المنفق** ...	**اليتيم، المسكين**...	**صاحب القرآن، اليهود، النصارى**...

وهكذا بهذه التصنيفات الجزئية توصلت الباحثة إلى غنى الأسلوب النبوي بهذه العلاقات الدلالية وحسن تنظيمها وتآلفها في سياق يحمل دلالات كبرى من خلال تتابع الكلمات بمترادفاتها أو بمتناقضاتها وغيرها، وهذا ما يعكس ثراء الأسلوب النبوي بالمعاني الجليلة بهدف ترسيخها في الأذهان(١).

(١) ينظر: الأمثال في السنة النبوية – دراسة أسلوبية: ٥٤-٥٧.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

ففي ختام بحثنا هذا لا بد وأن نشير إلى جملة من النتائج والتوصيات التي توصلنا إليها:

١-لم تكن لغة الجسد في الحديث النبوي الشريف متكلفة، بل جاءت عفو الخاطر بحسب سياق ورودها للدلالة على أمر ما توضحه وتجلي صورته أكثر للتأثير في المتلقين على مرّ العصور والأزمان.

٢-كان الاتصال الصامت في الحديث النبوي الشريف بديلاً عن اللغة المنطوقة في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كان مساعداً للغة المنطوقة في إيصال المعنى بكل دلالاته إلى المتلقي، فتتآزر الدلالتان للتعبير عن المقصود بأتم وجه.

٣-حمل الوجه الشريف وجهه ﷺ كثيراً من الهيئات التي أوصلت دلالات ورسائل متنوعة للمتلقي، فهم مغزاها من شافهها، ثم نقلها إلى الأجيال اللاحقة بحسب فهمها له، وبذلك فاق الوجه الشريف أعضاء جسده الأخرى ﷺ في هذا الجانب.

٤-لم تأت الألوان في الحديث النبوي الشريف كيفما اتفق، بل جاءت حاملة دلالات معينة يتطلبها المقام تطلباً.

٥-ورد في الحديث النبوي الشريف ذكر الألوان الأساسية الواضحة الدلالة دون غيرها من الألوان الثانوية الأخرى التي تتدرج في اللون وتعتم على المتلقي، فنلمح للونين الأبيض والأسود وكذلك اللون الأحمر حضوراً بارزاً، بينما لا نجد للون البرتقالي والرمادي والبنفسجي وجوداً في الحديث النبوي الشريف؛ لأنه ﷺ يختار المظاهر الجلية العامة في الطبيعة؛ لتؤدي مهمة جليلة، فهي مفسرة للدين وموضحة لدلالة معينة مرجوة من وراء هذا التعبير اللوني، فعلاقة الفكرة باللون قائمة بقوة.

٦-تبين من خلال الأحاديث النبوية الشريفة التي درسها الباحثون المحدثون تمكن الفن النبوي من استعمال اللون في مجال التصوير، فرمّز به ليُقدمه بديلاً من التصوير في بعض المواقف، مما يدل على قدرة فنية عالية للبيان النبوي.

٧-توقف بعض الباحثين المحدثين عند نظرية الحقول الدلالية، واتخذوا الأحاديث النبوية الشريفة مجالاً تطبيقياً لهذه النظرية، فاكتشفوا مجالاً رحباً وآفاقاً واسعة لألفاظ هذه الأحاديث بدلالاتها المتنوعة للفظة المعينة بكل مترادفاتها وما يمكن أن تجتمع تحته عند حقل معين من هذه الحقول الدلالية.

٨-احتوت بعض الأحاديث النبوية الشريفة على بعض التقابلات المثارة، وهي سمة أسلوبية أسهمت في إظهار الصورة واضحة بهذا التقابل بكل أنواعه.

المصادر والمراجع

بعد كتاب الله ﷻ.

أولاً: الكتب:

١. أثر التشبيه في تصوير المعنى «قراءة في صحيح مسلم»: د. عبد الباري طه سعيد، دار البيان، القاهرة، د. ت.
٢. الأدب النبوي، محمد عبد العزيز الخولي، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ٢٠٠٢م.
٣. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مراجعة: نجوى عباس، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.
٤. الأمثال في الحديث النبوي الشريف، د. محمد جابر فياض، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، سلسلة الرسائل الجامعية، ط١، ١٩٩٣م.
٥. البيان بلا لسان «دراسة في لغة الجسد» د. مهدي أسعد عرار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.
٦. البيان النبوي، د. محمد رجب البيومي، دار البيان، القاهرة، ط٤، ١٩٨٠م.
٧. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، طبعة الكويت، ١٩٦٧م.
٨. التصوير الفني في الحديث النبوي، د. محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
٩. الجديد في مناهج تفسير الحديث الشريف وتطبيقاته، د. أحمد عثمان رحماني، عالم الكتب الحديث، عمان، ط١، ٢٠١١م.
١٠. الحديث النبوي «مصطلحه، بلاغته، كتبه»، د. محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٨، ٢٠٠١م.

١١. الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د. عز الدين علي السيد، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٧١م.
١٢. دراسات لسانية في الحديث النبوي، د. أحمد عارف حجازي، دار فرحة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
١٣. الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم، عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٤، ٢٠٠٨م.
١٤. روائع البيان في الأمثال النبوية، د. محمود السيد حسن، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٨٨م.
١٥. الزاهر في معاني كلمات الناس، محمد بن القاسم، أبو بكر الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
١٦. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
١٧. السنن الصغرى «المجتبى من السنن»، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٩٨٦م.
١٨. سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، د. ت.
١٩. السياق وتوجيه دلالة النص «مقدمة في نظرية البلاغة النبوية» د. عيد بلبع، بلنسية للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠٠٨ م.
٢٠. شرح النووي على صحيح مسلم «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.

٢١. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧م.
٢٢. صحيح البخاري «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه»، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ.
٢٣. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، المطبعة المصرية، ط١، ١٩٢٩م.
٢٤. الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، د. أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، ط١، ٢٠٠١م.
٢٥. علم الحديث والدراسات الأدبية، د. نور الدين عتر، جامعة حلب، ط١، ١٩٨٦م.
٢٦. فتح الباري بشرح البخاري، ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أبو الفضل (ت ٨٥٢هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٩م.
٢٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب ابن الحسن الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود، ومجموعة من العلماء، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، ط١، ١٩٩٦م.
٢٨. في ظلال الحديث النبوي «دراسة فكرية اجتماعية وأدبية جمالية معاصرة»، د. نور الدين عتر، مطبعة دمشق، دمشق، ط٢، ٢٠٠٠م.

٢٩. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
٣٠. المستصفى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٣م.
٣١. مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٥٦م.
٣٢. مسند إسحاق بن راهويه، أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلي المروزي المعروف بابن راهويه (ت ٢٣٨هـ)، تحقيق: د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، ط١، ١٩٩١م.
٣٣. معالم السنن «شرح سنن أبي داود»، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ابن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (ت ٣٨٨هـ)، المطبعة العلمية، حلب، ط١، ١٩٣٢م.
٣٤. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.
٣٥. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.
٣٦. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ.
٣٧. المقاصد النبوية في الأسماء والتسمية، ميسون أحمد راجح، المشرق للكتاب، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م

٣٨. الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت ١٧٩هـ)، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٤م.
٣٩. النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة، د. غازي طليمات وعرفان الأشقر، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م.

ثانياً: الرسائل والأطاريح الجامعية:

١. أحاديث التعبد النبوية في ضوء نظرية الحقول الدلالية، أطروحة دكتوراه، إعداد: أحمد عاشور جعاز، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٨م.
٢. أحاديث القيامة في صحيح البخاري «دراسة بلاغية»، رسالة ماجستير، إعداد: سميرة عزيز حميد، كلية التربية للبنات، جامعة الأنبار، ٢٠٠٠م.
٣. أساليب الطلب في الحديث النبوي الشريف، دراسة بلاغية في متن صحيح البخاري، أطروحة دكتوراه، هناء محمود شهاب، جامعة الموصل، كلية الآداب، ١٩٩٥.
٤. الإعلام في السنة النبوية، رسالة ماجستير، محمد علي عوض، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠٠٩م.
٥. ألفاظ الأخلاق في صحيح الإمام البخاري، دراسة في ضوء نظرية الحقول الدلالية، رسالة ماجستير، محمد عبد الرحمن الزامل، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية وآدابها، ٢٠٠٠م.
٦. الأمثال في السنة النبوية «دراسة أسلوبية»، رسالة ماجستير، وفاء نايب، كلية الآداب، جامعة فاس، المغرب، ٢٠٠٩م.
٧. دلالة اللون في الحديث النبوي الشريف في صحيحي البخاري ومسلم، رسالة ماجستير، حمد محمد فتحي، جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٤م.

٨. رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، دراسة بلاغية تحليلية، أطروحة دكتوراه، يوسف عبد الله محمد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية، ١٤٢٩هـ.
٩. الفرح والحزن في ضوء السنة النبوية، دراسة موضوعية، رسالة ماجستير، نادر نمر وادي، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠١٠م.
١٠. الفنون البيانية في كتاب «الكاشف عن حقائق السنن» للطيبي، رسالة ماجستير، محمد رفعت أحمد، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، ١٤١٠هـ.
١١. الكناية في الحديث النبوي الشريف في صحيحي البخاري ومسلم، أطروحة دكتوراه، عمار إسماعيل أحمد، جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٦م.
١٢. لغة الجسم في السنة النبوية، دراسة موضوعية، رسالة ماجستير، محمد شريف الشيخ صالح، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٦م.
١٣. مراعاة أحوال الناس في ضوء السنة النبوية، رسالة ماجستير، مصطفى عبد اللطيف أحمد، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠٠٨م.
١٤. وسائل الإيضاح المادية في الحديث النبوي الشريف، جمعاً وترتيباً ودراسة، رسالة ماجستير، هنادة محمد ماضي، الجامعة الأردنية، ٢٠٠١م.

ثالثاً: البحوث والمجلات والدوريات:

١. الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين في ضوء القرآن والسنة، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، العدد (١١٢)، ٢٠٠٤م.

٢. بلاغة الإشارة في ضوء الأحاديث النبوية، دراسة دلالية، د. السيد عبد السميع حسونة، مجلة فكر وإبداع، مركز الحضارة العربية، مصر، إصدار خاص.
٣. توظيف الحقل الدلالي في البيان القرآني، الوجه الإنساني أنموذجاً – د. خميس فزاع عمير، مجلة جامعة الأنبار للغات والآداب، العدد (٧)، السنة (٣)، ٢٠١٢م.
٤. دلالات اللون في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، د. عياض عبد الرحمن الدوري، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج (٥٠)، ج (١)، ٢٠٠٣م.